أيام النوم السبعة

الكتاب: رواية

أيام النوم السبعة

المؤلف :

الدكتور سليمان العطار

الطبعة :

الأولى: ٢٠١٢م

رقم الإيداع :٢٠١٢/٩٦٥٦

نسق الغلاف وعلق عليه :

فحطان الفرح الله

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الناشر: التجليات للنشر والترجمة والتوزيع

١٨ش خليل أبو يوسف - المساحة

فيصل – الجيزة – مصر.

altagalyat٢٠١٢@gmail.com

18. st. Khaled Abo youssef - El

messaha - Fisal - Giza Egypt.

المحتويات والأفكار لا تعبر بالضرورة عن رأي التجليات؛ بل إنها تعبر عن أراء المؤلف سعيًا لبث ثقافة التعدد

تقدم التجليات: إصدارها الأول

أيام النوم السبعة

رواية

للدكتور سليمان العطار

Al Tagalliat presents:The first publication:

The Seeven Days of Sleep

Novel

Prof. Soliman Al Attar

أيام النوم السبعة

رواية

د. سليمان العطار

(أ) اليوم الأول

(١)

دخل مكتب المدير العام، وعلى وجهه ابتسامة تتدفق لتحية سكرتيرة المدير التي سارعت لفتح ضلفتى الباب الأخضر، الذي يعلوه مصباح مطلي بالأحمر مطفأ.

أضاءت الفتاة السكرتيرة المصباح. نظرت إليه وتخيلت واجهة سيارة الإسعاف. هزتها صيحات السيارة من داخلها. هربت من المشهد إلى مرآتها، زنبقة فينانة تعبث بها رياح دوامة. استمعت إلى من يهمس في أذنها "اهدني يا زينب" لم تميز صاحب الصوت، فتلفتت حولها فلم تجد أحدا سوى سيارة إسعاف خضراء بمصباحها الأحمر تتجه لتدهمها. صرخت فلم تسمع صوت صرختها.

(٢)

خرج من مكتب المدير العام، لم يلتفت إليها، ساءتها السحابة السوداء في عينيه، حاولت اللحاق به فلم تستطع.

(٣)

وجد نفسه في سريره. لم يعرف كيف قطع المسافة بين مكتب المدير العام وبين بيته. ظل صوت الفتاة السكرتيرة زينب يرن

فى أذنه إلى أن نام فى عمق، وسقط العالم من ذاكرته أثناء النوم، واختفى صوتها ومعه كل الأصوات، أحس ببئر الصمت يبتلع حواسه ويغمر داخله بظلام ليل طويل كأنه شعر زينب؛ فاجأته الشمس نائما مع أن الليل قد رحل واستلم النوبتجية نهار جديد.

(ب) اليوم الثاني

(١)

دق الباب سبع دقات متوالية سريعة لكنها متميزة، كل دقة تموت فى دقة تتلوها عالية، لتموت في التي بعدها، إلى أن ماتت الدقة الأخيرة في أذنه. انفزع من النوم، فمن يدق على الباب هكذا في تلك الساعة الباكرة؟ إنها توشك أن تدق السابعة صباحا.

أسرع نحو الباب وهو يفتح عينيه بأصابعه، قفز الخطوات السبع إليه وثبا، فتحه، لم يجد إلا الفراغ مطليا برطوبة الصباح الشتوي مع أن الزمن زمن الصيف.

أسرع إلى مدخل العمارة الذي منه أيضا يخرجون، كان المدخل يتصل بالممر الذي تفتح عليه شقته، لم يشاهد أحدا إلا صدى ارتطام حذاء ثقيل يرتد منعكسا من الداخل ليعود إلى المصدر غير المرئى المتحرك للصوت، ذلك المصدر الذى يرسل ويستقبل ما أصدر: إنها الدرجات السبع التي تحمل الداخل إلى شقق السلاملك كما تقذف بالخارج إلى مشارف رصيف الشارع رقم ٧ لمسكنه رقم ٧.

عاد تجتاحه الحيرة ويصهره النكد بسب هذا الصباح الذي

أيقظه مبكرا دون داع، عندما كان قد استطاع أن يعيد رفع وفرد بنطلون بيجامته الذي التف كقيد الحمار على قدميه، كان قد دخل الشقة فتوقف الهواء الرطب عن ملامسة أفخاذه التي تعرت أثناء هبوط وصعود الدرجات السبع بالمدخل بحثا عن مصدر الصوت، حاول أن يستثمر الراحة التي أحس بها بسبب نجاحه فى فك قدميه من قيد بنطلون البيجامة الذى كان قد سقط عن خصره وأعاده حيث كان.

لم تنجح المحاولة بسبب فعلة ساعة الحائط: لقد دقت سبع دقات معلنة موت السابعة وميلاد ساعة جديدة يطلقون عليها الثامنة صباحا، قفز الخطوات السبع نحو السرير هربا من دقات الساعة السبع، ألقى بنفسه على ذلك السرير ونام.

أيقظه جرس التليفون الذي جلجل سبع مرات ثم صمت قبل أن تصل السماعة إلى يده التي امتدت نحوها، قرر أن يعود إلى النوم، منعه من تنفيذ القرار أن التليفون من جديد يدق سبعا، كما منعه من محاولة إسكاته أن الباب والساعة كانا يدقان فى مصاحبة التليفون.

تحرك مثل البندول بين الباب والتليفون محاولا أن يحدد أيهما ليس الساعة، بعد أن بدأ تنميل الحيوية يدب في شلل حيرته البندولية اندهش من الخلل المفاجئ الذى أصاب الساعة فى تلك الساعة، إنها تدق السابعة لثاني مرة لأنه ألقى نفسه فى السرير عند السابعة بعد أن انفض من سماع دقاتها السبع تعلن تلك الساعة، أنقذه من بعض الإضطراب رؤية الظلام يتدفق من

النافذة المفتوحة التى كان يظنها مغلقة: لقد نام اثنتى عشرة ساعة.

ما أعظم النوم.. إنه سلطان، ولعل الذى عاناه طوال اليوم السابق: الأحد، كان سبب ما حدث له قبل أن ينام تلكم الاثنتا عشرة ساعة، حقا لقد كان كابوسا بسبب الإرهاق وقهر الرجلين اللذين تناوبا عليه طوال نهار أمس وليله، لقد نامهما معا وها هو قد نام نصف هذا اليوم الاثنين، حاول أن يمحو من ذاكرته الأحد فلم يستطع، لقد كانت ساعة أداء صلاة الظهر من ذلك الأحد سابع أيام أسبوع العمل في الشركة في اليوم السابع من الشهر السابع من السنة السابعة التي بدأت منذ سبع يناير ات كاملة عندما التحق مهندسا باحثا في مصنع تلك الشركة الصاخب، كيف اتفق وجود هذه الكوكبة من السبعات؟

هل يضحك أم يصرخ أم ينزع ورقة التقويم المعلق على الحائط: تلك الورقة التى تحمل ٧ يوليو الموافق ٧ رجب، أم يقفز مثل مهرج السيرك بين الدقات السبع التي تعاود الباب والتليفون، دون أية مشاركة الآن من الساعة.

وقف أمام الساعة تتحرك كل خلايا جسمه كأنها التى تصنع تكتكتها التى صاحبت اصطكاكات أسنانه، لقد حاول أن يفكر فى أى شيء، فاكتشف أنه يكاد يموت من البرد، لا بأس، بالبيت دفاية، اتجه ليشعلها فاشتعلت فى الهواء النار.

إنه حمار.. كيف لم يدرك رائحة البوتاجاز في الهواء، دون تفكير طار يفتح نوافذ البيت جميعا، وعندما دخل إلى حجرة النوم

ليفتح نافذتها لم يجد للنافذة ضلفا ليفتحها، بحث ونقب عن الضلف في كل مكان من الحجرة حتى تحت السرير وفى الأدراج، عاود البحث فى النافذة نفسها، أخيرا أيقظه توهج مفاجئ في مصباح الشارع أضاء به بعد أن كان مطفئا، فأدرك أن النافذة مفتوحة وسكنت دقات قلبه.

تذكر النار في الهواء وتوقع صوت انفجار أنبوبة بوتاجاز، تولاه الهلع عندما خطر بباله مثل طيف البرق أن أنبوبة الدفاية كانت أصلا خالية من الغاز منذ آخر شهر يارد فى الشتاء، طرد هذا الخاطر الخبيث، وذهب إلى موقد البوتاجاز ليعد بعض القهوة ويتدفأ على نار الموقد، أمسك فى يده الثقاب، لكنه خاف من إشعاله وتلفت حوله بحثا عن الغاز فى الهواء فلم تر عينه غير شعاع المصباح فى سقف المطبخ، حملق فيه فلم يفكر فى شئ سبعاوى، وجد فى مصباح الكهرباء أنيسا ومخرجا لكن المصباح تركه وحيدا وانطفأ.

غرقت الشقة فى ظلام يستقبل شيئا من قبس أضواء الشوارع البعيدة عن الحي السابع حيث يسكن ويعيش، دار بحثا عن هذا القبس الهارب فى كل النوافذ، قهقه في حشرجة عواء الكلاب عندما اكتشف لأول مرة أن عدد النوافذ سبعة.. خشي أن يعد أصابع يده، حقا ولم يعد أصابع يده؟ إنه يعرف كم عددها منذ زمن قريب ومن المستبعد تغير عددها.

خاف أن يتسرب شيء من النوافذ غير قبس نور الشوارع البعيدة الهارب من الحى السابع، فأغلقها جميعا في سبع قفزات.

فكر في شمعة قديمة مهجورة في المطبخ، لم يتذكر مكانها لكنه تذكر زينب، شعر بشئ من الاطمئنان، وقرر أن يجد الشمعة بأي ثمن، لكن الطرقات السبع اللعينة تعاود الباب، لن يفتح.

تكوم في مكانه داخل ملابسه بجوار موقد البوتاجاز، توقفت أنفاسه وسمع الطرقة الأخيرة تثقب أذنيه فى آن لترقد فى هوة بئرية بينهما، استمع إلى دندنة تكتكة الساعة، نظر إليها فلم يجدها فى ذاكرته، لأن الساعة بعيدة فى مدخل شقته ولا تصل تكتكتها إلى المطبخ، إنها أسنانه قرر أن يعض بها الهواء فى قوة ويشد نفسا بأنفه من الهواء الثقيل وليحدث ما يحدث.

لم يسمع صوت نفسه، ولم يشم معه رائحة الغاز، أخرج من جيبه صندوق الثقاب وأخرج منه عودا وأشعله في مغامرة لإشعال الموقد لأن في ناره - على الأقل - بعض النور، اشتعل الموقد ولم يصدق، لقد عاكسه الثقاب كثيرا قبل أن يشعله.

عود انكسر، وآخر انطفأ، وثالث فقد رأسه، ورابع سقط من بين أصابعه، وخامس ابتل من ماء دافق بدأ يسيل فى مجار على جسمه، ويمطر من وجهه وجبهته ومنابت شعره، وسادس رفض تماما أن يشتعل مع كثرة هجمات يده على " الشكاكة" وسابع أرعبه حين اشتعل لأنه: لماذا يشتعل السابع فأحرق يده قبل أن يشعل به الموقد، من ثم مالت رأسه على يده، وخمدت ناره، أما العود الذي جاء بعد ذلك توهج سريعا وأشعل الموقد، فلم يشأ أن يطفئه بنفسه فوضعه فوق نار الموقد.

فكر في زينب واستراح بلا حراك مشدوها لعودة النور المفاجئة مع طرقات الباب، يضئ مع كل طرقة وينطفئ، كما لو كان الطارق " قرداتى " مع آخر طرقة انطفأ النور من جديد فهب ضوء موقد الغاز واهنا ضئيلا لكنه شديد الإشعاع دعمته صورة زينب تهوم حوله فى الفراغ و تهفهف لتحيى ناره.

* * * * * * *

(٢)

تحولت صورة زينب إلى بخار أبيض لكنه مع بياضه ظللته عفريتة الصورة السوداء في تحديدها لمعالم صاحبتها. بدأت العفريتة البخارية تتقلص و تتكثف في قطرات من لحم وعظم ودم إلى أن صارت صاحبة العفريتة في حجم طفلة عمرها سبع سنوات.

تم تحميض العفريتة، وظهرت صورة طفلة عمرها سبع سنوات اسمها زينب وما هى بزينب التى انبثق عنها البخار الطفلي بيضاء بضة اللحم فيها نضج فتاة الرابعة عشر، تكوينها الأنثوى يروع ويكتمل فيه توتر وشدة أوتار تمثال من الرخام ذي العروق الحمراء، ألقت الطفلة بنفسها فوق كوم من الثياب يتكون من مريلة المدرسة الناعمة الراقدة فوق مريلة المدرسة الأخرى الخشنة المفروشة بعناية فوق كوم من القش وقطع ثياب صغيرة الحجم داخلية.

عندما رأى جسم المرأة الطفلةِ الأنوثة أحس بأثر حجر شج

رأسه.. بحث عن رأسه ليتحسس الجرح ويوقف نزيف الدماء، فلم يجد تلك الرأس فى مكانها، نزل بيده إلى أسفل فوجدها تعلو الأرض بمائة سنتيمتر وخمسة، لقد صارت الرأس أصغر لطفل في السابعة طالما أراد أن يرى زميلته الصغيرة وقد تجردت من ثيابها الشديدة البريق والفخامة.

أمسك رأسه بيده، أخذت رأسه تصغر وتتضاءل وتقصر حتى استقر كل شئ في مكانه، نظر إلى الفتاة المستلقية تبتسم فى هدوء ونقاء، تشنجت ملامحه ونظر حواليه فلم ير أحدا في هذه الطاحونة المهجورة التي تتصل بالمدرسة عن طريق ثقب في سور المدرسة الفاصل بينهما. لقد كان ذلك النقب يمثل المدخل الوحيد لهذا المكان العاري من السقف، والذي تملكه المدرسة لتوسعها في المستقبل، سألته الفتاة:

- خايف؟
- أيوه.
- مم؟ .
- من العفاريت التي تطلع هنا.
- لا تطلع العفاريت لاثنين.
- صح.
- إذن، تعال. تعال هنا.

ألقى نفسه بجوارها، ارتعدت بجانب المرتعد، بدأت أصوات

عظامها تعلو، ولا سيما عظام الفم الأسنانية! احتضنا، تدحرجا، تجاوزا دائرة المريلة الخشنة المفروشة بعناية فوق كوم من القش وتحت مريلة أصغر ناعمة.

غابا عن الإحساس الواضح بالأشياء سوى بدفء، بدأ يغلى لثوبين نابضين بحياة النبت الطرية، خدر وتنميل، ضحكا، بكيا، أدار كل منهما ظهره للآخر فناما، استيقظا.

حاول أن يفهم ما يظن أنها تفهمه فشد شعر رأسها، فظنت أنه يفهم مالا تفهمه من سر وجودهما معا هكذا هنا، رأت أن تتخلص من شده لشعرها فعضته في صدره، هرش في كعب رجلها فطفقت تضحك، من ثم، أطلقت لحم صدره من فمها، أخذت تعد أسنانها على محيط دائرة منبعجة حول ثديه الأيسر، أحس بمذاق اللبن السرسوب في فمه عندما انقض بفمه على رأس الهرم النابت لثديها الصغير الذي صوبته في براءة نحو عينيه وهى تعد أسنانها، انقطع العد، وتلاشت الأرقام، وطويت أوهام الخوف أمام استسلامها: استسلام أم مرضع لطفلها الرضيع:

- لا تعض، مفهوم؟

- .....

ألقت برأسها فوق رأسه، وبدأت تضع فمها مفتوحا فوق كاهله. أحاطته بحزامين من يديها ورجليها، انسحبت زوحه وروحها من كتم أنفاسهما من فرط الإبهار والإثارة والغموض، أحست بأنفه تسكب سيلا من الأنفاس الساخنة على صفحة بطنها،

نفخت بطنها بالهواء، وفرغتها عدة مرات وهى تضحك معه، بدأت أنفاسه تنسكب على الأرض فتدفئ مهدهما، كانت أنفه تنغرز مثل منقار الطائر في مكان غائر من نفسها، رعب! أصوات تتدحرج من تحت السور عبر النقب:

- أنا شفتهما معا - يا أستاذ - يدخلان من هنا زحفا.
- طب أدخل وراءهما ونادهما.
- لأ، أنا خايف، الطاحونة مليانة بالعفاريت.
- أدخل يا ولد.
- لأ، لا يمكن....لأ، لأ....

(أحسا بفرقعة صفعة فرقت خديهما)

- لا تكذب على زملائك مرة أخرى.
- والله شفتهما.
- (صفعة أخرى تعيد لخديهما الالتصاق في محاولة كل منهما أن يحتمي بالآخر)

- أنت كذاب، قل: أنا كذاب.
- يا أستاذ !! إذن أين هما ؟ !
- غائبان.
- الاثنان !

- أيوه، معجزة يعنى غياب الاثنين ؟! قل: أنا كذاب أو أنت تعرف الفلكة.

- أيوه، صحيح يا أستاذ أنا كذاب ولم أر إلا عفاريت.

أقدام الأستاذ الثقيلة مزمجرة مختلطة بسباب موجه لطفل انصرف معه باكيا، جلسا صامتين صمتا أثقل من رحى الطاحونة الذي هو من صخر جرانيتى، نظر كل منهما إلى الآخر فوجده يحتضن ملابسه في حجره.

- الحمد لله ربنا سترها.

نظر إليها الفتى مثل الأبله الأصم، وقد فقد وجهه أي ملمح أو لون.

- مالك يا شاطر حسن؟

- .....

- لا تخف، سننتظر كما اتفقنا حتى يخرج آخر من في المدرسة، ثم نخرج.

الفتاة أقوى منه، وقد كانت كذلك دائما، إن أباه فراش بمكتب أبيها المدير العام وهو وأمه يعملان حينما يطلبان في خدمة أمها في البيت، بل إن الأب الفراش ترك الخدمة في المكتب إلى خدمة بيت المدير العام، وعندما دخل معها الطاحونة كان طاعة لأمر منها، فقد تعود على طاعة أوامرها.

لقد أحبت ـ كما قالت له ـ أن ترى عفاريت الطاحونة تحت حراسته، لم يملك أن يقول لها: لا، لأنه لم يعرف معها غير قولة: نعم.

ملأ جوفه الخوف عندما وقفا حول محور الرحى القديمة القتيلة الملقاة على أحد الجدران، أمرته أن يخلع لها مريلتها ويهرش ظهرها، ففعل أيضا لأنه تعود أن يقول: نعم.

تركته يهرش في ظهرها قليلا، ثم التفتت إليه بوجهها فأدار وجهه سريعا عنها، وأعطاها ظهره، التصقت بظهره ويداها فوق عينيه، سألته " مَن أنا؟ " ضحكت كثيرا، وارتعد كثيرا ظنا منه أنه لم يدخل مع زينب، وإنما مع جنية.

كررت السؤال: " مَن أنا؟ " قال لها: " الجنية ".

أدركت أنه جاد وخائف منها، خلعت له مريلته لم يستطع أن يقاوم، ولم يتوقف قط عن الارتعاد، أدارت وجهه نحوها فاندار، وضعت رأسه فوق كتفها، وربتت على ظهره ومضت تهدئ فيه، وتقنعه بأنها زينب، وأنها فقط تريد أن تلعب معه لعبة يلعبها الأب الرجل مع الأم الأنثى.

سألها فى هدوء أراحها:

- من منا يلعب دور الأب الرجل، ومن منا يلعب دور الأم الأنثى؟

- بالطبع أنت الأم الأنثى، وأنا الأب الرجل.

- حاضر(لأنه تعود ان يقول لها: نعم).

أمرته أن يفرش مريلته بعناية فوق كوم القش الذي أخذ يتكسر تحت قدميه، ويرسل عاصفة من غبار، ثم أتبعت ذلك بأمرها أن يضع مريلتها فوق مريلته مكومة لأن الأب الرجل تعلو أشياؤه أشياء الأم الأنثى، فعل.

ألقت بنفسها فوق المريلة متكئة على مريلتها، وقالت له:" سنبقى هنا حتى ينتهي اليوم الدراسي، ثم نخرج دون أن يحس بنا أحد".

قال في تردد:" أخشى من أخذنا غياب معا"، ردت عليه: " لا تخش شيئا من هذا، أنت فقط سيأخذونك غياب عادى. أما أنا فالأستاذ لايجرؤ على أخذى غياب، فاهم ؟ ".

أحنى رأسه موافقا، واطمأن إلى شيء من الأمان، وبدأت اللعبة حتى سماع صوت الأستاذ ومعه زميلهما الشقي "عبد البصير عبد السميع" الذي كان يتعقب زينب دائما، في الوقت الذى كانت تهرب منه دائما.

بدأت أجراس المدرسة تعلن انتهاء اليوم الدراسى، استغرق انصراف الأطفال وقتا طويلا، حاول أن يرتدى مريلته، طلبت منه التروى لأنها فى حاجة إلى اللعب مرة أخرى، فلا بد لها أن تعضه فى ثديه الأيمن ولا بد له أن يرضع من ثديها الأيمن حتى تكتمل اللعبة.

اطمأن إلى خلو المدرسة، وبدأ يلعب فى نشاط ورضا وحمية،

حيث بدأت تتكشف له من داخله حلاوة اللعبة التى طالما أحب أن يعرف عنها شيئا من كوة فى سقف حجرة نوم أمه وأبيه، بدأ الرضاعة التي جعلت إحساسه بألم عضتها يبلغ ذروة متعته، إذ مضى يعد - هو - مع هذا الإحساس أسنانها تنقح في بدنه لتستقبل تدفق ثديها في فمه.

- الله !!.. الله !

سمعا هذا الصوت الخشن لعملاق ينفض ثيابه من تراب علق بها بعد زحفه فى الدخول إلى الطاحونة، ازدوج الصوت الرفيع لطفلين فى هلع:

- الأستاذ ؟ !

التقط بيده (التي تشبه السلة) ملابسهما، أمرهما أن يتبعاه.

المدرسة خالية تماما، أخذهما إلى حجرة الناظر، جلس على كنبتها الوثيرة، وقف أمامه كائنان بائسان صغيران عريانان يكرران مُشهد الخطيئة الأولى، ويحملان وزرها دون أن يخطئا.

- انتظر.يا ولد يا حسن في الخارج.

خرج حسن سامعا صوت الأستاذ آمرا زينب بأن تغلق الباب خلف الولد حسن، أغلق الباب وارتمى حسن خلفه يلعق الهواء جسمه مثل كلب جريح، اكتسب حاسة سمع الكلب وهو مرتم على الباب حيث كانت أذنه قد سقطت على ذلك الباب الموصد بمحض الصدفة.

- ماذا كنت تصنعين ـ يا زينب ـ مع حسن؟

السؤال فيه نبرة حنان تخلو من أي تهديد، أجابت:

- كنا نلعب عروسة وعريس.

- مع حسن ابن الفراش.. ابن الفراش !

- أيوه، هو ولد مؤدب وأنا باحبه.

- وأنا ـ أيضا ـ يا زينب مؤدب وسوف تحبينني، هل ترغبين في أن ألعب معك مثله؟

- لا، حضرتك تلعب مع شخص كبير مثلك.

- لكن يا حلوه "أنا نفسي موت" ألعب هذه اللعبة، معك أنت بالذات.. فاهمة أنت بالذات.

- قلت لحضرتك العبها مع شخص كبير.

- طيب! سأقول لأبيك عما رأيت اليوم، والآن حالا بالتليفون.

(وضع يده على التليفون)

- تفضل حضرتك قل ما تشاء.

- ألا تخافين؟

- لا

- طيب! عموما لابد أن ألعب معك مهما ضايقك

ذلك لأني واثق من انبساطك في الآخر.

- لا.. لا..

(بدأ بكاء الطفلة وفيما يبدو أن المدرس وجد في بكائها مجالا لأن يبدأ اللعب معها، من ثم، حاول أن يمسح دموعها فصرخت).

- لا.. لا تمسح دموعي! إيدك تجرح وجهي. لا أريد إيدك، أبعدها عن وجهي..

أحس حسن بالخطر عليها، وجد ثيابهما ملقاة بجانبه على مدخل حجرة الناظر.

لبس ملابسه و نظر من ثقب الباب، رأى الأستاذ ينهض ويحمل زينب عنوة، ويلقى بها فوق الكنبة ويده فوق فمها وعيونه حمراء منتفخة، وقد خرجت عن محاجرها.

فتح حسن الباب برفق، وبقصرية زرع صغيرة فتح رأس الأستاذ من الخلف، سقط الأستاذ مثل نخلة تتهاوى في عاصفة، عانى إغماء وسيلا من الدماء، ألبس حسن زينب ملابسها، عاونها على قفز سور المدرسة، قفز بعدها بدقائق، عاد إلى البيت.

لم يكن أحد هناك، لاشك أن الأسرة في بيت المدير العام، نام في ظلام بئر الطاحونة المهجورة.. سمع صوت ثور ينعر سبع نعرات ثم، صفعه الأستاذ سبع صفعات، بكى بدموع حرار بعد سبع صرخات مكتومة، دق الباب سبع دقات، أضاء بئر الطاحونة المهجورة.. لقد كان غارقا في النوم بقاعه.

تبين أن موقد الغاز مشتعل عندما استيقظ، لقد دفأ حجرة

المطبخ الصغيرة، اختفى مع قدوم النور شبح زينب الكبيرة والصغيرة، وبقى حسن الكبير، وراح إلى فراغ سرمدى حسن الصغير.

دق الباب دقة واحدة انتظر ما بعدها من دقات فلم يحدث، خرج من المطبخ نحو باب الشقة، ونظر من العين السحرية: لقد رأى ما تمناه على تلك العين السحرية.

كانت زينب الكبيرة شحما ولحما، فتح فمه دهشة، ثم فتح الباب وسده بجسمه دون أن يدرى ماذا يفعل، لأن المفاجأة صعقته من فرط السعادة والأمن والأمل.

زينب في بيته؟! دفعته بيدها في كثير من الدلال والفهم، دخلت كأنما تعرف البيت من قبل، جلست وهو لا يزال بالباب مصعوقا عاجزا عن الفهم محاولا في إصرار أن يحمل رجليه على أن يحملاه رغم ارتعادهما فى منطقة اتصالهما ببدنه.

قالت له فى ابتسامة مهدئة ومشجعة:

تفضل اجلس يا حسن بك ! أنت في بيتك تماما.

ظل حسن واقفا إلى أن قامت قامة لدنة مثل عود قصب صعيدي خدّ الجميل، وأمسكت بيده في مهارة، وجذبته في هدوء فانجذب، وضعته بعناية فوق أحد كراسي طقم الأسيوطي في مدخل الشقة، جلس وجلست في مواجهته ودار بينهما صمت طويل.

(جـ) اليوم الثالث

فى اليوم التالي لم يتمكن من الاستيقاظ في موعد العمل المبكر، ظل نائما صبيحة الثلاثاء يحلم أنه نائم، لكنه استيقظ في الحلم وهو يعرف أنه يحلم فى نومه، فظل يحلم وظل نائما.

كانت السابعة: إنه موعد التوقيع في ساعة المصنع، وقع، دخل مع عشرات الداخلين فلم يجد في المصنع غيره، حاول أن يخرج.. الأبواب اختفت مثلما كان يختفي الداخلون معه إلى المصنع.

عوت الماكينات، صرخ، ظل يصرخ إلى أن فقد الإحساس وسقط نائما ولم يحلم لأنه كان نوم الأبد، سمع طرقا ملحا على أحد الأبواب، انتزع نفسه من السرير فرأى الباب الذي يدق، كان باب شقته.

- من؟

- الزبال.

عاد إلى غرفة نومه وأخرج من جيب سترته خمسين قرشا، فتح الباب.. وضعها في يد الزبال، دخل ونام مرة أخرى.

تكرر الطرق على الباب، قام، فتح الباب.

- مكوى؟!

- .....

أغلق الباب، كاد يهوى على الأرض استند إلى الباب، سمع طرقا جديدا على الباب يرن بجوفه، أدار أكرة الباب وظهره مستند إليه، اندفع الباب نحو الداخل ببطء فدفعه معه قليلا، ثم هوى على الأرض وظل يهوى في فتحة بئر أبدى مظلم فجرته طرقة رأسه العنيفة على قشرة الأرضية الرقيقة، التي كانت تغطى بئرا عميقا سريا يشبه جمجمة رومانية.

كانت رأسه إلى أسفل ورجلاه مفتوحتان إلى أعلى يرسمان الرقم٧ في فراغ البئر الفارغ من المياه، أحس بجذب شديد نحو القاع اللا قاعي مما جعل سرعته تتجاوز سرعة الصوت المظلم الذي يلاحقه:

- وقع على هذا المحضر.

- أي محضر يا أفندم.

- محضر صلاحية هذه الأجهزة التي حدثتك عنها مرارا.

- لكن الأبحاث أثبتت عدم صلاحيتها.

- هذا أمر.

- لن أوقع.

- هل تعرف كيف تعد حتى المائة ألف؟

- نعم.. لكن ذلك يستغرق وقتا لا نهائيا.

- هذا العد لا يستغرق أي وقت إذا كانت وحدة العد "الألف".

- طبعا يا أفندم.

- إذن وقع، ثم عد "باكوات" النقود في هذه الحقيبة.

(تهاوت نقود الحقيبة في رفق تسافر في اتجاه مضاد لقاع البئر ... ألف.. ألفان.. خمسة آلاف.... سبعة آلاف..)

- ح.. سـ.. ـن.. حســـــــ ان.. حسن !

(سمع أخيرا صوتا حلوا منزعجا يردد، زغرد اسمه داخل جدران البئر اختفت النقود.. توقف العد.. سمع صوته يرن مجاوبا تردد اسمه)

- لن أوقع.

- إنها مائة ألف جنيه كمقدم.

- أنتم تشترونني بثمن بخس..

- ما دار بيننا اليوم سر، وإذا خرجت كلمة واحدة ثمنها رأسك الغبي العنيد.. عموما أمامك خيار واحد: أن توقع.. لكن سنعطيك فرصة بضعة أيام للتفكير العاقل

مفهوم؟

- هذا تهديد؟

- أنت مغرور وغبي ولا تستحق حتى التهديد، أنت أهون علينا بكثير من ذلك، لكنه أمر، والآن اخرج إلى بيتك وسأراك يوم الخميس القادم بعد انتهاء إجازتك.

- إجازتي...؟

- أنت لا تعرف شيئا حتى عن نفسك.. لقد قدمت لي طلبا الآن فقط لإجازة وستجد مكتبك مغلقا منذ هذه اللحظة وحتى يوم الخميس لاحتياطات الأمن، لأنك رئيس وحدة الأبحاث ومكتبك يحفل بالأسرار، ولا يصح أن يكون مفتوحا خلال إجازتك.

(ظهرت الحقيبة من جديد دائمة الصعود في اتجاه مضاد لقاع البئر. فتحت الباكوات وتساقطت منها أوراق فئة المائة جنيه، كان رذاذ البنكنوت يمطر في بطء شديد أمام عينيه الهابطتين)

- حسـب ـــــان .....حاسـبـــن.. حســــن.

(سمع اسمه مرة أخرى، بدأ يميز الصوت الحلو المنزعج: إنه صوت زينب المنتحب، بدأ يميز وجهها، أحس بأنه يهبط بسلام إلى قاع البئر، القاع بارد مهدئ للأعصاب مغطى ببلاط أسمنتي)

أحس بيد تدلك قلبه، نظر حواليه وقد بدأ يأخذ أنفاسه التي كانت قد أخذوها منه منذ قليل، البئر ليس إلا مكانا ارتفاعه ثلاثة

أمتار، وله سقف معلق به لمبات كهربائية مضاءة:

- أين أنا؟

- في بيتك يا حسن.

- .. لكنى لن أوقع.

- توقع على أي شئ يا حسن؟

- على محضر صلاحية الأجهزة.

- لقد قيل أنك قد وقعت عليه فعلا أول أمس.

- من أنت؟

- هل نسيت زينب يا حسن؟

- زينب؟

- أيوه.. زينب.

- ماذا جرى لي يا زينب؟

- لقد فتحت لي الباب وتهاويت على الأرض، وسقط قلبي معك يهوى نحو قدمي الأيسر.

- انهض يا حسن.

ساعدته متكئا على كتفها، ويده حول خصرها يتشبث بهذا المكان الضعيف خوفا من السقوط، سارت به إلى سريره، استقر عليه بهدوء بعد أن أمسك يدها ونظر إليها في صمت وتوسل

وشقاء عزيز قوم ذل، لم تدر ما العمل؟ صمتت وطفرت من عينيها الدموع تقطع حبل صمتها.

- أتبكين؟

- لا.. عيني بها التهاب أو رمد، ومنذ يوم وهى لا تكف عن الدمع.

- يا حبيبتي.

- ح.. ح.. حبيبتك؟ ماذا تقول يا ح.. ح.. حسن؟ عشت سبع سنوات انتظرها منك.. واليوم تقدم لي كل هذه الفرصة ملفوفة بكل هذه الأحزان؟

(يبدو أنه لم يسمعها).

- زينب حبيبتي.

- نعم يا ح.. حبيبي.

لم يجبها لأنه نام، جلست بجواره علي السرير تحاول أن توقف أنفاسها حتى لا يرقظه، أن تحرك تفكيرها الذي شل، لم تنجح في الأمرين.

توالت أنفاسها متلاحقة لاهثة تبخر دموعها فورا من فرط الحرارة كما ظل تفكيرها مقيدا في شلله، انتهي بها الأمر إلي أن نظرت إلي حسن في بلاهة وامتدت نظرتها فلم يكن لامتدادها آخر.

* * * * * * *

(٢)

تركت السرير وتسللت إلى التليفون، أدارت القرص والسماعة تقبل شفتيها وتتحسس أذنها.

- مساء الخير يا ماما.
- مساء الخير يا زينب.
- أنا بايته بره الليلة.
- نعم؟ .
- خير؟
- حسن يبدو كما لو كان يموت، لابد أن أبقى بجواره.
- في أي مستشفى؟
- في بيته.
- تقولين: فى بيته؟
- أيوه يا ماما.
- تقضين الليل في بيت رجل غريب غير متزوج.
- قلت إنه يموت ؟
- ليمت.. ما شأننا به؟
- إنه وحيد كما تعلمين، وأنا أحبه.

- أكرر أن كل ما تقولين لا يبرر مبيتك عنده: إنها فضيحة بجلاجل.

- لاتهمني الفضائح خاصة إذا كانت بجلاجل، تصبحي على خير..

- اعطني العنوان وسأحضر لأكون معك.

- تصبحي على خير..

ألقت السماعة، وهى تشعر بقوة مفاجئة، لقد عاشت عمرها كله ألعوبة في يد أمها ثم المدير العام صديق هذه الأم التي تخشى من مبيتها في بيت رجل غريب!

غريب أمر الأم التي تفعل الشيء الذي تخشاه على ابنتها، إن الأم تفعل ذلك في خفاء وسذاجة وبالنهار فقط حتى أنها تتصور أن ابنتها لا تعرف، لكن هذه الابنة قد أدركت كل شئ من الرسائل الشفوية التي تحملها لها شخصيا الأم، وذلك بين الحين والحين.

لقد حلت الشفرة وفهمت كل شئ: ماما تدعوك تشرب الشاي عندنا بكره الساعة الرابعة! وتخرج الأم فى الساعة الرابعة.. إلى أين يا ماما..عمى عبد الحميد الغول في الطريق!.. ورايا مشوار شراء حاجيات مهمة وسأرجع حالا، وعموما عمك الغول مرة يوفى بكلمته ويأتى وعشر مرات لا- والمدير العام الغول نفسه: يا زينب أبلغي ماما بأني سأتناول الغداء معكما يوم الاثنين، ولا تظهر الأم فى البيت ولا المدير العام الغول فى المصنع أو البيت

يوم الاثنين..

كانت تصلها التبريرات - من عمو الغول صديق أبيها الراحل ومن أمها أرملة أبيها الراحل - دون أن تطلبها: لم أتمكن من الحضور يوم الاثنين لمرض، والأم لم تبق فى البيت يوم الاثنين لأنها كان عندها اجتماع مجلس إدارة بحدى الجمعيات الخيرية الكثيرة التي تشترك في إدارتها.

بكت زينب، لقد فهمت ثم تعودت على الفهم، واستسلمت له، ولم يعد يمثل لها مشكلة، وظلت وفية مطيعة لأمها ولعمو عبد الحميد الغول المدير العام للشركة التي التحقت بها بفضله سكرتيرة له بمرتب كبير، لقد أعطاها محضر صلاحية الأجهزة، وطلب منها بالأمس أن تجعل حسن يوقع عليه...

وجاءت لحسن بالأمس ووجدته في صمته وذهوله، فوقعت توقيعه الذي أجادت محاكاته لسبع سنين من الحب الصامت، كان حسن يطلب منها أن توقع له على أشياء كثيرة في حالة تغيبه في عمل آخر أو عدم تمكنه أو كسله، وبالأمس - الاثنين - ظنت غيابه عن المصنع بسبب المرض، أحبت أن تراه، من ثم حملت إليه المحضر ووجدت حالته غريبة فلم ينطق بحرف واحد لمدة ساعات حتى تركته وانصرفت، لذا قررت معاونته بتزوير توقيعه على المحضر.

واليوم لم يحضر للعمل أيضا فجاءت إليه، ووجدته يهوى مع فتح الباب ويهذى حول المحضر الذي وقعته باسمه بالأمس، لم

تمكنها حالته من حكاية قصة توقيعها بالنيابة عنه، لكن " الفأر لعب في عبها" واعتقدت بوجود علاقة بين التوقيع وبين حالته تلك.

ملأها الرعب، بعد مكالمتها لأمها هدأ روعها وشعرت بالقوة، ستعرف منه كل شئ بل ومن المدير العام، وستسحب المحضر بأي شكل إذا كان بالفعل لا يريد التوقيع عليه، لعنت الغول وأمها والعالم كله الذي يصل بحبيبها إلى ما هو عليه الآن، نظرت إلى وجه النائم فوجدته يتقلص بقوة، أحست به كله ينكمش ويتكور حتى صار في حجم الطفل.

تأوه سبع مرات، بدأ يتمتم في نحيب: " حاضر يا أستاذ، حاضر يا أستاذ، حاضر.." صفعتها كلماته سبع صفعات جعلت رأسها مثل رأس شجرة بين عاصفتين.

تذكرت موقف انكساره أمام الأستاذ المعمم بشاش أبيض يبرز سواد قلبه في اليوم التالي ليوم الطاحونة، سأله الأطفال في مرح عن سر عمامته الجديدة، أسكتهم في غضب: " طلّع يا حسن كراسة الحساب " أخرجها حسن من حقيبته (المخلاية)"، "عندك سبع مسائل غلط"، فتح الأطفال أفواههم: حسن دائما ألفة الفصل وأحسن تلميذ في الحساب، لم يفهم موقف كراسة الحساب غير حسن وغيرها، "هاتوا الحاجّة " وهذا اسم عصاته " كل غلطة بعضة من الحاجة "، فرد كف يده اليمنى الخضراء في ثبات تلقى به سبع سياط من عصا غاب الخيرزان الملفوفة بالسلك والتي حجت مع صاحبها إلى بيت الله الحرام - كما يدعى الأستاذ كلما

أراد أن يعذب أحد الأطفال.

تأوه سبع مرات من تحت أسنانه العليا التي تشبثت بشفته السفلى، سحب يده تنزف دما وسحب أسنانه ملوثة أيضا بالدم من جراء حفرها في شفته " لا غلط بعد اليوم " أجاب: "حاضر يا أستاذ "، ثم ارتفع الصوت القاسي " لا تهمل في واجبي بعد اليوم "، انكسر صوت الولد حسن: "حاضر " " يا أستاذ"، سمع العبارة الأخيرة القاضية: لا تذهب لخدمة "ستك زينب" وتترك شغل المدرسة وإلا فلا تعد إلى هنا مرة أخرى، في خفوت وأسى:"حاضر يا أستاذ"، وبكت زينب وبكى معها بعض تذكرها يصاحب حلمه فى تلك اللحظة.

أمضيا فترة المدرسة بعد ذلك دون أن يتبادلا الكلام، التقيا كثيرا في صمت، أخيرا التقيا في الشركة دون مصادفة، لقد علمت أمها بتخرجه من كلية الهندسة فطلبت من الغول تعيينه وعينه .. لم تعلم زينب بتعيينه إلا مصادفة، عندما حملت إلى الغول "أوراقا " لتوقيعها من بينها ورقة تعيينه، حكت لأمها، لم تعلق الأم كثيرا، ضحكت وقالت: فاكره يوم أن حكيت لي قصة الحاجة والسبع غلطات فى سبع مسائل حساب؟ أجابتها فى فتور: "أيوه فاكره".

علقت الأم: "من يومها وقلت إن (العلقة) تلك سوف تنفع ذلك الولد، وفعلا نفع وبقى مهندس، الله يرحم أبوه وأمه فلم يحملك ويلاعبك أحد مثلهما".

انتهى تعليق الأم لكن زينب أدركت أنها غالبا وراء واقعة تعيينه بالشركة، تذكرت زينب يوم الطاحونة، سعت للقاء حسن، وجدته شابا أسمر فارع العود مهيبا جاد الملامح عيناه يشع منهما بريق مسيطر، لكنه محاط بدائرة حزينة زرقاء تحت العينين منه.

حاولت أن تلفت نظره إلى كل شيء فيها وعنها، لاحظ الجميع وتهامسوا "الجدع تقيل ولا سائل فيها"، ظلت تطاردهوتسمع نفس التهامس بنفس إصرار مطاردتها.

أحبته في هدوء وتدرج، تعمق الحب، وكل شئ يقول بأنه صخرة لا تلين، حاولت تذكيره بيوم الطاحونة بل وبأبيه وأبيها وكل شئ مضى، كان يبدو مثل أبله ينظر إليها لا يصدق ما تقول، تفوق في عمله بشكل حفز بعض شركات القطاع الخاص بل وشركات عربية وأجنبية على دعوته للعمل بها بأجر مرتفع، رفض كل العروض، لم يحبه زملاؤه واحترموه.

كان الغول يعاديه بشكل ملحوظ لم يعرف له سببا، لكنه أيضا كان يخشاه فظل عداءه له من الظهر، انهالت عليه المكافآت من وزير الصناعة، ومن الدولة، اعترافا باختراعاته وإضافاته، لم تستفد شركته قط من ذلك ومع هذا فقد ترقى ترقيات استثنائية، همس الموظفون: أول رجل مناسب غير مناسب في المكان المناسب.. "هذا هو المدير العام القادم".

أطلق عليه بعضهم تيمنا بمستقبله وسخرية من الموقف كله: "حسن الغول" ولعل هذا الهمس المعجب الحاقد، وصّل للغول

فكرهه، بجانب اضطراره لقبول ترقية موظف عنده دون موافقته شخصيا وترشيحه بنفسه، أيضا كان ينفس عليه المكافآت والجوائز وحب زينب الذي اشتهر.

رفضت زينب كل الخطاب المتهافتين على جمالها ومالها، امتنعت عن الزواج مع أن حسن تزوج عمله، وكان له زوجا مخلصا، لم يغب يوما واحدا، ولم يأخذ بجازة قط، ويوم غيابه لأول مرة - بأمر من الغول - فزعت زينب وتناقل الموظفون والعمال الخبر، العجيب على أنه حدث العام: " هل تعرف آخر نكته "؟ اليوم غاب الباشمهندس حسن عن العمل".

سأل المدير العام زينب:

- هل يمكن استدعاء الباشمهندس حسن من قسم الأبحاث؟

- لم يأت اليوم.

تكلف الغول الدهشة والفزع:

- كلام فارغ، لا يوجد ما يمكن أن يسمى: حسن لم يأت.

- هذه الحقيقة.

- حقيقة مزيفة.

- لا، حقيقة حقيقية.. لقد ذهبت إليه بنفسي فوجدته: " لم يأت ".

- كـويس والله.. اليـوم الوحيـد الـذي يغيـب فيـه يعرض الشركة لخسارة ألوف وألوف.

- لم يا أفندم؟

- يوجد محضر لابد أن يوقعه وألا تضيع على الشركة صفقة العمر..

- كفى يا أفندم.. لا تحمل هما، هات المحضر وأنا أجعله يوقعه.

(لم يصدق ما سمع، لكنه اهتز بثقتها مما تقول).

- نعم؟ ·

(لم تفهم ابتسامة الغول: إنها ابتسامة مخيفة لكنها مبتهجة بهجة غريبة، لم يصدق- بعد - ما سمعه من زينب، قرر أن يبدأ مناورة معها للاشتراك في الصفقة مقابل إقناعها حسن بالتوقيع، عندما فكر في الإجراءات التي ترغم حسن على التوقيع بعد فشل الإغراء بالنقود، لم يفكر في زينب التي اشتهر حبها لحسن، إنه حمار كما تكرر له مايسه هانم، لهذا قرر أن يستخدمها سلاحا في هذه المعركة لكنها سهلت الأمر جدا كما لو كان قرارا منها أن تستخدم كسلاح ضد حسن، لهذا نوى عدم مصارحتها بشيء في الوقت الراهن لعلها تحصل على التوقيع مجانا).

- قلت: هات المحضر وأنا اجعله يوقعه.

- يوقعه هو شخصيا؟

- أيوه

- نعم؟

- يوقعه هو شخصيا؟.

استغربت الموقف وابتسمت ابتسامة اتسعت عندما ذكرها أسلوب الغول في الحوار بطريقة أمها في الكلام، وكثرة ترديدها "نعم " في مواقف بعينها، لكنها لم تنجح في إدراج الموقف الحالي على غرابته ضمن نفس المواقف عند أمها، إن " نعم" عند أمها تعنى عدم التصديق والإحساس بمأزق.

ربما يفكر الغول مستنكرا إمكانية زيارتها لبيت حسن أو شئ من هذا القبيل، لم تفكر كثيرا لأنها ظنت أنها لو زيفت توقيع حسن بمحاكاته ستسدى له جميلا في يوم وحيد غاب فيه، وخاصة أنه منذ سنوات قد فرح عندما فاجأته بقدرتها على محاكاة توقيعه.

نعم لأول مرة فرح بشئ تعمله أو تقوله له، حسن أخبرها: "إننى أوقع على مئات الأوراق دون فائدة من توقيعي سوى ضرورة التوقيع كجزء من الروتين، وأنا لا أحب أن أغرق في أعمال إدارية مثل عملية التصديق تلك على الأوراق، إن ذلك ينسيني عملي الهندسي في الأبحاث، وأظن أنك (باعتبارك إدارية) ستقبلين إسداء جميل التوقيع على مثل تلك الأوراق نيابة عنى، فقط أنا اجمعها لك وأنت توقعين".

قبلت بفرح، فأضاف: "عموما، أنا اليوم أعطيك حق التوقيع عنى".

عصرت هذه العبارة الأخيرة، فاستخرجت منها شيئا من الغزل العميق غير الظاهر...

ازدادت فرحتها ومضت تطارحه الغزل بطريقته: "ألا تخشى أن أبيع ممتلكاتك؟" أجابها مبتسما فى فخر: "أنا لا أملك إلا الستر وهدومى".

واصلت الغزل الذى ظنت أنه صار صريحا "سأبيع هدومك!" أجاب مبتسما: "ماشى موافق" قالت: "إلى هذا الحد هكذا لا تعبأ بتبديد هدومك!" قال لها: "جاء الإنسان إلى العالم عريانا، ويلتقي المرأة عريانا، ويدفن عريانا"، قالت له وهى تضحك: "هل الإنسان عندك يعنى الرجل؟"، قال لها فى ابتسامة جديدة: "المرأة كائن أرقى من الإنسان، فهى عريانة بطبيعتها من فرط الشفافية، فوجب على الرجل التعري من زيفه عند الالتقاء بها".

أخذت المحضر من يد المدير العام وعيناها في الفراغ أثناء إعلانها أنها ستخرج ساعتين للبحث عن حسن وإحضار توقيعه، قال لها متراجعا عن عجلته: "ساعتان.. يوم.. المهم أن تعودي به موقعا"، اندهشت: " إذا كان الأمر غير عاجل كما فهمت فلم لا نتركه حتى يأتي إذا ويوقعه؟ "، فأجابتها عبارته: "لن يأتي غدا أو حتى بعد غد"، سارعت بسؤاله: "بربك لم؟" قال: "حسن لا يغيب إلا لكارثة، والكارثة لا تنتهي في يوم أو يومين".

قررت أن تخرج ساعتين تشرب شيئًا في مكان عام وتوقع نيابة عن حسن بتوقيعه الذي أجادته، وتعود موهمة المدير العام

بأن حسن شخصيًا هو الذي وقع، وبذا تسدى جميلا للرجل الذي أحبته.

عند خروجها خطرت بقلبها فكرة أبدعها ما بقلبها من حب، من أجل هذا لابد من زيارته كي أطمئن ومعي المحضر حجة وجيهة لمهاجمته في عقر داره، سعدت بالفكرة توجهت إلى بيته، تذكرت قصة التوقيع فغزاها شيء من الشك لكن سرعان ما تلاشى كل شيء فى فكرة زيارة المحبوب.

زارته ودار بينهما صمت طويل. حيرها ذهوله الذى قابلها به. تذكرت سنوات الدراسة الثلاث بعد حادث الطاحونة. كان ينظر إليها بنفس الطريقة. يغلى الصمت في عينيه. تضيق العينان وتقذفان بحمم الحيرة الصامتة والانكسار المليء بالعزة. عاشت معه تتذكر عجزها عن إخراجه من صمته، وحزنها الطفولى الذي ربطها بأحزانه وبه شخصيا أكثر من أي رباط آخر بأبويها.

لقد عاش بقعة فارغة من الفضاء في داخلها، كانت هذه البقعة تريد الامتلاء حتى نسيته فيما بعد، ولم تفقد مع ذلك البقعة الفارغة التي عذبتها شوقا للامتلاء.

كانت تنسى أشياءها في كل مكان، تفقد ذاكرة الاحتفاظ بالذكريات، تسير فتنسى وجهتها وتفتش عنها في حقيبتها وجيوبها، ثم تسأل نفسها عمّ تفتش، فلا تذكر إلا أنها تأخرت عن موعد أو ذهبت إلى مكان تصاب فيه بحرج أنها لم تكن مطلوبة أو متوقعة الحضور.

ظلت تحلم بشيء غريب، لقد كانت تسقط من قمة جبل أخضر كل ليلة فتشعر بلذة فائقة تغمرها بصرخات خوف مبتهجة تتردد في فضاء البقعة الجرداء الشاسعة التي تستقبلها عند سقوطها من قمة الجبل، وذات يوم قرأت خطاب تعيينه، أحست أن الورقة قد ابتلعتها دوامة في داخلها، فظلت تبحث عنها، وهى في يدها.

تأملت في تقلصات وجهه وهى تجلس بجواره على السرير بعد مكالمتها مع أمها وعاشت زمانها البائس معه بالعرض بعد أن عاشته بالطول، قررت أن تدخل تحت غطائه بجواره على نفس السرير، شعرت باضطراب بدنيهما معا فى امتزاج قبل أن تتسلل مثل كرة زئبق إلى جواره، أزالت تقلصات وجهه بنفحات تنهداتها، فلم تحفل بأسراب الطيور الخضراء المغردة داخلة من نافذة الحجرة عندما ظهرت على الوجه النائم براءة ترتسم فى هدوء الملامح، وانتظام الشهيق والزفير، وابتسامة أخفاها وقار اللحظة. تمنت أن تنظر فى مرآة لترى وجهها وقد اكتسى بكل أنواع الورود.

لم تر نائمًا أكثر يقظة من حبيبها، لقد تحركت يده خلف يدها في هدوء لتستقر تحت رأسها واعتدل على جنبه الأيمن ثم مال بجنبه الأيسر ميلة واحدة فغطى منطقة قلبها وضغط برفق ضغطة واحدة انهالت مثل جرف من الرمال فوق ثديها الأيسر فأحست لأول مرة به يبرز فى وضوح عما يحيط به من سهول الجيد والبطن، ومع إحساسها ببروزه الغريب انهالت نحو الجاذبية الأرضية أثواب الحرير الدافئ تفترش كل بشرتها فى انتشار

دوائر الماء حول حجر شق جوف الماء واختفى فيه مضمدا الشق بتلك الدوائر المائية سريعة الظهور والانتشار.

أحست فى فمها بطعم بشرتها الجديدة كأنها قطعة سكر تمتصها. استنشقت عبير بشرتها من أنفه فى أنفها. تحركت جيوش التنميل والخدر والاسترخاء المستسلم فى خلايا ردفيها ثم انتشرت في كل الأنحاء. استقبل أحد كتفيها – لم تعلم أيهما – رأسه فصار وسادة تتوسد الرأس التى تتوسدها. اختفت معالم المكان اللهم إلا دائرة مجوفة تدور به فى أشعة قمرية ترسمها هفهفة أسراب الطيور الخضراء المغردة التى كانت قد دخلت من النافذة عندما دخلت هي تحت غطائه. إن البقعة الفارغة بداخلها لم تمتلئ لكنها خرجت لتحيطها بكل لون من ألوان المساج المضيء المغرد.

نامت دون أحلام في هدوء لم تحسه من قبل، وأمن قررت وهى نائمة ألا تفقده، ولهذا عندما نهض حسن من نومه صارخا تماسكت أمام الهول الذي واجهها، لم تدرك في البداية لماذا كانت العصافير الخضراء المغردة تفر مذعورة وقد تحول تغريدها إلى عواء قطط تتشاجر في حزن، ولماذا كانت صرخات حسن بهذه الضخامة وذلك التعدد، ولكن ما رأته أمامها فسر الأمر.

لقد امتلأ البيت بسبعة وحوش ضارية لعلها الكلاب التي قضت في يوم من أيام الزمن الجيولوجي على كائن عظيم القوة والشأن كان اسمه الديناصور، لقد كانت جميعها تنبح وتضرب مثل زحام أغلب البشر حول عروض مثيرة تقدمها مسارح يطلق عليها

جمعيات بيع اللحوم بأقل من التسعيرة البيضاء والسوداء على السواء. لقد وقفت الكلاب السبعة الفلكية الحجم والهيئة والنباح فى دائرة تحيط بالسرير الذي لم يعد تهفهف عليه الطيور الخضراء المغردة أثناء توسطه لغرفة نوم حسن.

لم تدر زينب ماذا تصنع فالكلاب تنبح وتهاجم ثم تنسحب لتعود للهجوم دون أن تمسهما بسوء مباشر، احتضنت زينب حسن في حنان ثم في قوة لم تعرف مصدرها. تمكنت من إيقاف صرخاته بعد أن غسلت صدرها بدموعه: " اهدأ يا حسن يا حبيبي! الخطأ خطأي لأني عندما دخلت لم أغلق الباب". لم تفهم إجابته المذعورة: " إنها سبعة هل تفهمين؟ سبعة... سبعة وكلها فى حجم واحد ولون واحد ومن نوع واحد قديم لم يره أحد غيري من قبل".

حاولت أن تستوعب ما يقول فلم تتمكن إلا من سؤاله: " لماذا كل هذا البكاء؟ لتكن سبعة أو سبعين، المهم أنهم لن يستطيعوا إلحاق الضرر بك، لا تبك فكم أتمنى أن تتحول هذه الدموع إلى ابتسامات... هل تفهم: ابتسامات؟ ألا تتوقف عن الارتعاد والبكاء.. أنت محموم يا حسن!" ضاع صوتها بين نباح الكلاب وضجيج القادمين.

لقد استدعى الجيران البوليس. حاولوا القضاء على الكلاب. لم يتمكن الجنود الأقزام مواجهة هذه الوحوش العملاقة. خرجت الكلاب عندما رأت فوهات المسدسات تستعد للانطلاق. كان خروجها أشبه بانسحاب مهزوم أمام خصم ضعيف على ملأ من القوم.

أمر الضابط بعض جنوده بمطاردتها في حذر والاستعانة في ذلك بقوات مكافحة الكلاب الضالة. استدعى الضابط طبيبا لحسن. وفى هذه اللحظات التي تزاحمت فيها حيرة زينب بين تساؤلات الناس ودهشتهم وعدم تقديم تفسير للبوليس أو من البوليس لما جرى دخلت دار حسن أمها أرملة أبيها المدير العام الراحل، ومعها رجل يلهث وراء كرشه بينما ينافس وجهه المحبب القاسي في استدارته وتورمه مكانة هذا الكرش من الاستدارة.

كان الرجل الغليظ لا يتفق في شيء مع أبيها المدير العام الراحل إلا في التأنق الصارخ الدال على ثراء الحرب أو على محاولات يائسة لتغطية منحة القبح التي وهبتها له الطبيعة.

رأت زينب في وجه الأم الأبيض الصارم الجمال شيئًا من الابتهاج الجنائزي عندما لمحت حبيبها حسن محمومًا غائبًا. تأكد الأمر نفسه فى وجه الغول مرافقها الذى لم يستطع أن يخفى فرط سعادته بمآل حسن.

- ما هى حكاية الكلاب السبعة التي يرددها الجيران في رعب؟

- شيء -- يا ماما -- غير معقول لا...

- كفى يا حبيبتي! ستحكين لي فيما بعد. أصل هذا الشاب موعود بالكلاب، والغريب يا زيزى يا بنتي أنهم دائمًا سبعة.

- لا أفهم ماذا تقولين يا ماما.

- ستفهمين يوما ما فيما بعد، فيما بعد! المهم يالله نروح.

- نروح ؟كيف؟ هل نترك حسن وحده.....؟

- لم لا؟ من حسن هذا؟ هل كان ابنا لنا ونسيناه ؟
- لن أبرح مكاني هذا حتى يفيق من الحمى.
- دعيها – يا هانم – وشأنها.
- لا تتدخل – يا غول- فاهم؟
- دعيها – يا هانم – الشاب مسكين وحيد، وعمومًا غدًا سأحل الإشكال بتحويله إلى مستشفى الشركة، ووقتها تروح زينب وترجع لك يا ستى!
- كفى ظلما، أنا لن أعود إلى بيتك، يا ماما. فاهمة؟ ولا شركتك، أنت الآخر. فاهم؟
- نعم؟!
- يالله يا هانم بنا الآن. مسكينة! الكلاب السبعة والحمى، ثم أنا وأنت، دعيها حتى تهدأ.

خرجت الأم أرملة المدير العام الراحل في صحبة مرافقها الغول المدير العام حاليًا، فما كان من زينب إلا أن صفعت قفاهما بالباب، وعادت تقدم لحسن الدواء الذي وصفه الطبيب الذي استدعاه ضابط البوليس. تحرك رأس زينب للعمل بسرعة ألف حصان في الثانية. استعادت بعض الأصوات في يومها المزدحم العجيب:

- هذا توقيع حسن؟
- أيوه.
- متأكدة؟
- طبعا.
- طيّب إذن اطلبي ما تشائين، لقد أنقذت الشركة من خسارة.

مليون جنيه.

- حضرتك تذكرني بملوك ألف ليلة وليلة: أطلب تجب.

- أنت من حقك مكافأة ١٠%.

- هذا – إذا صح – من حق حسن.

- حسن ليس جديرا بشيء لأن من صميم عمله التوقيع في الوقت المناسب لكنه هرب عند اللزوم، أما أنت فمن أنقذ الشركة.

- لن أقبل أية مكافأة أو أي طعن في إنسان مريض.

- طيب! مامتك ستقبل بالنيابة عنك.

- لا تقحم ماما في شيء من فضلك وإلا اقبل استقالتي.

- طيب... طيب لا تغضبي واعتبري كأن شيئًا لم يكن. مع السلامة الآن، وسأخفض المكافأة الضخمة إلى إجازة. انصراف يا زينب لمدة أسبوع كامل!

- موافقة!

* * * * * * *

- أين أنا؟

- في بيتك يا حسن.

- لكن لن أوقع.

- توقع على أي شيء يا حسن؟

- على محضر صلاحية الأجهزة.

* * * * * * *

- إنها سبعة هل تفهمين؟ سبعة... سبعة وكلها في حجم واحد ولون واحد ومن نوع واحد قديم لم يره أحد من قبل غيري.

* * * * * * *

- أصل هذا الشاب موعود بالكلاب، والغريب يا زيزى يا بنتي أنهم دائمًا سبعة.

- مسكينة! الكلاب السبعة والحمى، ثم أنا وأنت. دعيها حتى تهدأ.

* * * * * * *

تداخلت هذه الأصوات وامتزجت، ففهمت الكثير وغمض عليها الكثير واستحال فهم سياق التفصيلات! لا تهم التفصيلات، إنما المهم هو الإسراع فى اتخاذ القرار بدخول معركة يتم خلالها الاكتشاف حيث لن تجد التفصيلات أمام المواجهة من سبيل للاختفاء.

* * * * * * *

(٣)

خرجت الأم، وقد قصمت صفعة الباب رأسها، وأطاحت برقبتها، فاستقبلت رأسها المفتوح بين يديها واحتضنته بدون رقبة بين نهديها فأشبهت آوزة تستريح بإخفاء رأسها بين رجليها. حاولت أن توقف دوامة العواصف فى فضاء هذه الرأس الجميلة التي لو شاهدها عالم مصريات لظنها رأس نفرتيتي المسروقة قد عادت لتمثال هذه الملكة الذي فقد رأسه في بلاد الغربة. لقد فقدت كل شيء فى الوقت الذي وجدت فيه كل شيء. لم تكن تتصور قط وجه حسن فى رجولته من قبل بل وتجنبت أية محاولة لهذا التصور كما تجنبت رؤيته شحمًا ولحمًا.

أكلت كبدها الغيرة من ابنتها، وتمنت لو أحرقتها وجلست حيث

كانت تجلس على سرير حسن. لم تستطع التحمل. طردت الغول الذى حاول أن يستثمر الموقف ليحيطها بحنان ينتهي به إلى تدليك أقدامها على سريرها الخاص فى ليلة قدر لم يحظ بها قط، فعلاقته بها نهارية لأنها حريصة على منح سواد الليل لابنتها التى ترقد فى سريرها الخاص بجوارها كما يرقد سواد عينيها فى عينيها.

حاولت أن تطرد صورة حسن فلم تفلح إلا فى إلباسه بدلة كاكى سترتها ذات أزرار معدنية صفراء. انتصب حسن أمامها ببدلته الصفراء ذات الأزرار المعدنية وفى يده شنطة ملينة بالخضار والفاكهة وقد تأخر خطوتين عن يمين وجهها الفيل بحجمه الضئيل مثل وتد مغروس معظمه فى الأرض. نظر الفيل نحو الخلف عن يمين كأنما يبحث عن ظله وقال:

- سلم يا سبع على الهانم.

تقدم السبع ببدلته الكاكى ذات الأزرار المعدنية الصفراء ورأسه خفيض ومد يده إلى كف لا يمكن أن يكون إلا مهلبية بماء الورد ولبن العصفور فى إناء من بللور، وانحنى مثل صخرة تسقط من ذروة بناء شامخ تحت التشطيب، وباس الكف، واعتدل شامخًا يستعيد فى ذهول طعم البوسة. نظرت إليه نظرة خبير عزيز فأحس أنها تحتويه فى نظراتها حتى تلاشى داخلها.

- حط الشنطة يا سبع وتوكل على الله.

انصرف السبع يتعثر فى خطواته وخلفه الفيل يدس فى جيبه شيئًا من المال، تحسس جيبه. خرج. صفق الفيل الباب فورا واستدار وسار خطوات ليواجه زوجته تقف متسمرة مثل آلهة

قاسية الجمال تفجأ ملامحها رائيها كل مرة يراها. جاذبها الحديث:

- حسونة السبع ساعي جديد في الشركة اعجبني فأخذته لمكتبي.

- باين عليه نظيف وابن ناس جار عليه الزمان.

- نظيف نعم، لكن ابن ناس: هذا محل نظر لأن ابن الناس يموت من الجوع ولا يقبل وظيفة ساعي.

- أنت دائمًا قصير النظر حتى لو لم تخلع نظارتك كما أنك شاطر فى إصدار أحكام أصلها من دماغك وليس من الواقع.

- رجعنا للشتيمة.

- لا شتيمة ولا حاجة، المهم هذا الولد أحتاجه هنا فى البيت، ومن الغد سيأتي من الساعة العاشرة.

- بس كده، حاضر ياستى. لكن لو كان ابن ناس كما تزعمين سيرفض العمل خدام بيوت.

- إذا لم يوافق أرسله على أى الأحوال أنا أضمن موافقته.

بَلَعَ الفيل ريقه، ودخل غرفة نومه ليخلع ملابس الخروج ويرتدى ملابس البيت، ويستعد لطعام الغداء.

* * * * * * *

ازداد الحاح صورة حسن على ذهنها تشد من أعماق فضائها الروحي الكوكب الوحيد الذي سكنه ولا زال. كان ذلك هو ثالث يوم ترى فيه حسونه السبع. جلست في مدخل قصرها الصغير على كرسي أسيوطي مريح يواجه كرسيا آخر جلس فيه السبع يتكلم وهى تسمع فى اهتمام لم تتعود أن تمنحه لأحد من الرجال

السبعين الذين عرفتهم من قبل:

- هـــه؟!

- عندما رجعت البيت بالأمس، وخلعت السترة صرخت زوجتى، "فين الفانلة؟"

- هـــه؟!

- شاهدت جسمى ملط تحت السترة فى استغراب جعلنى أضحك حتى فني كل الضحك.

(ضحكت وضحك معها حتى أفنيا كل الضحك)

- هه – وبعدين ماذا قلت لها؟!

- نشلوها منى زملائي في الشغل.

(ضحك فضحكت واهتمامها يتزايد)

- هه؟!

- صرخت. وبعدين راحت تبكى فى نحيب وشنهفة. وبعد ساعة من المحايلة قالت:

- أنت نمت مع واحدة ثانية.. لازم أعرف.. لازم.. لازم.

(ضحكت هى فى قهقهة، وابتسم هو فى شيء من الخجل أمام انطلاقها، لكنها دفعته لمواصلة الحديث).

- وبعدين؟

- رميت فى حجرها القرشين اللي حضرتك وضعتيهم فى جيبى. فى الحال مسحت دموعها بظهر يدها وبلعت ريقها في ذهول من يكذب ما يرى: "دول مائة جنيه"

"قلت لها:

- أيوه، مائة جنيه!

- ممن سرقتهم؟
- هذه نقود حلال زلال.
- كيف؟
- الحكاية طويلة لكن باختصار: لقد أصبح لى عشيقة أعطتني هذه الفلوس وستعطيني مزيدًا من الفلوس، وهى التي أخذت الفائلة ورمتها فى الزبالة، والمسألة يا بنت الحلال بين يديك. وافقت يبقى ربنا فتحها علينا، اعترضت فهذا أول يوم أعرفها فيه، ولم يكن ممكنا تضييع الفرصة حتى أحضر واستأذنك.
- من هى؟
- امرأة المدير العام.
- مرة واحدة! والله وبقينا في العالي يا سبع.
- من فضلك كلمة واحدة: أمشى في السكة دي أم لا؟
- ولو عرف المدير العام؟
- عارف وموافق.
- يا مصيبتي! لكن لو رجعت عن هذه السكة تروح في داهية، وكيف نصرف على ابننا حسن.
- لا تخافي على ابننا لأن الرزق على الله.
- لكن لو مشيت في هذه السكة، لن تتركنا؟
- في حالة واحدة فقط: لما أموت.
- هذه السكة في حالتك المشي فيها أرحم من الرجوع.

اتكأت على الكرسي الأسيوطي المريح، وبدأت تأسرها صراحته السوقية الهائلة وانتهازيته الذكية المبتذلة، وأدركت أمرا واحدًا وراء ذلك كله: الحب الساخن الذي يزيل شحوم الحب

الارستقراطي ونعومته الزائفة. لقد أحبها وأحبته. لم يحاول أن يخفي عنها شيئًا مما دار بينه وبين زوجته. ولم يحاول أن يخفي عن زوجته شيئًا مما دار بينهما. رجل له حياة واحدة ووجه واحد. لم تغضب من وصفها ببساطة "عشيقة". ألا يستحسن أن تحمل الأشياء أسماءها؟ كذلك اندهشت من ادعائه بموافقة زوجها على علاقتهما لكنها استشفت من ذلك قدرة صائبة على التنبؤ، فليس منظر زوجها مما يوحي بالنخوة تماما مثل زوجة السبع. لقد علم أن زوجته الطماعة ستقبل كل شيء في مقابل المال لوصارحها وتخلص من مشكلة كانت ستطارده وتقضي عليه، ولعله يعلم أنها لا بد وقد صارحت الفيل بكل شيء، إن لم تكن اتفقت معه سلفا. كم هو هادئ وواثق من نفسه وعارف لكل شخص مهمته ودوره بعكس حيرته بالأمس.

* * * * * * *

وفجأة احتل الأمس مقاعد اليوم: لقد جاءها في العاشرة تماما كما طلبت من زوجها فتحت بنفسها الباب. حياها في أدب. طلبت منه الدخول. دخل. وقف في طول ورشاقة مسلة فرعونية.- أمرك يا هانم.

- ألم يتفق الفيل "بك" على شيء معك؟

- فقط قال لي: اذهب إلى الهانم في البيت عند الساعة العاشرة بالدقيقة.

- جبان - كعادته دائمًا - يهرب من أي معركة. "ديل الكلب...

- نعم يا أفندم؟

- لا.. لا شيء اقعد.
- يا أفندم العفو. أوامرك حتى أرجع الشغل.
- أنا قلت أقعد.
(لم يملك أمام أمرها له بالجلوس بلهجتها المسيطرة الغاضبة إلا أن يجلس في كثير من الحيرة والضيق)
- باختصار يا سبع مطلوب منك مساعدتي في شغل البيت.
- صلينا على النبي.
- نعم ؟!
- صلينا على النبي.
- ماذا يعنى ذلك؟
- يفتح الله يا هانم. أنا لا اشتغل خدام بيوت.
- خدام بيوت ايه وهباب ايه. عمومًا انتظر هنا وأنا عندما أعود حالا سأساعدك على الفهم.

* * * * * * *

غابت بعض الوقت وتركته يغلى من الخوف والترقب، لكنها عادت بعد ساعة من الزمان تخطر في شيء ترتديه يحجب كل جزء من جسمها ليظهر حسنه في أفظع درجات إثارته الوحشية. لم يتمكن من تبرير تغير لون شعرها من الأسود الأبنوسي إلى القمحي المنسدل، الذي أوشكت الأرض أن تشب إلى أطرافه لتقبلها، في تدفقها الغزير مثل مطرة في ظهيرة عاصفة، تنسكب أشعة شمسها مع حبات المطرة، التي نزلت دون أن تنعقد في سحابات.

مدت يدها شعاعًا من نور ناصع البياض، وأمسكت بيده بينما

كانت يدها الأخرى تدفع ذقنه إلى أعلى. واجهتها عيناه. تسلطت عليهما بعد أن ثقبت عيناها الواسعتان عينيه.

نام دون أن ينام. فقد السيطرة على نفسه. شدته برفق دون أن تتخلى عن النظر الثاقب إليه متحركة بظهرها حتى دخلت غرفة النوم القهقرى. لم ينتبه إلى اتساع غرفة النوم ومرآتها المحيطة بجدارها. تضاعف الاتساع بالأضواء. عشي بصره، وسالت دموعه، وهى تفك أزرار سترته المعدنية الصفراء في هدوء دون أن تتخلى عن النظر إليه. تدحرجت يديها في هدوء تتلمس طريقها نحو آخر الأزرار مثل كرة لينة من اللبخة الساخنة.

لم تجد آخر الأزرار، فتدلت بها في فراغ ما بين فخذيه. انفتحت السترة الضيقة تلقائيًا، ويدها لازالت تبحث عن آخر الأزار. شاهدت شيئًا يشبه خريطة العالم تحت السترة المشدوهة. الفانلة قذرة وممزقة، تتنوع فتحاتها، فتأخذ كل الأشكال والأبعاد، ينفر منها شعر أسود مشرئب فى خشونة حشائش الحلفا في حقل مهمل الصرف، كثرت أملاحه، ورائحته عطنة.

قهقهت طويلا في ضحكة تشبه جوقة نساء يزغردن. سال عرقه، وكاد يسقط عندما لمح المشهد مكررا عشرات المرات في المرآة المحيطة دون أن يدرك أنها مرآة. أنقذته من السقوط بدفعه نحو السرير فسقط بسهولة جالسًا يلهث. خلعت سترته في رقة لكنها انقضت على الفانلة في ضراوة جوارح الجو ومزقتها فصارت في يدها ترابا تبعثر في جو الحجرة وتعلق بأعمدة أشعة الشمس المضاعفة في كل مكان في الحجرة السحرية.

دفعته دفعة جديدة فاستلقى على السرير وألقت بنفسها بجواره.

راعته ليونة السرير وحنانه. التصقت به. تسلقته. مضت تمسح صدره وبطنه بأنفها وشفتيها. استعذبت رائحة عرقه العطن ومذاقه. لقد كانت الرائحة نفاذة مثل رائحة الجلد المحترق، والطعم لاذع مثل طعم الكحول الأحمر.

خلال ذلك تسلل إلى أنفه بستان ندى من الياسمين فتنسمه بأذنيه. كانت الرائحة العذبة تحول تيه أذنيه إلى صالة موسيقى ألحانها العصافير الخضراء المغردة. لم يحتمل كل هذا الخدر الممتع يسري في بدنه. جذبها بقسوة مفاجئة إليه. قاومت. بدأ الاغتصاب. تضاعفت المقاومة فأجبرها على المثول لما يريد. قهرها.

تعالت صرخاتها النشوانة من فرط الألم. بعد دورة كاملة في الفراش أصبح هو سيد الموقف. تَحذَّرَ على جسمها الرملي الناعم مثل فصوص من ملح الثلج تجلدها، وما تلبث أن تذوب على جلدها وتغلي. أطبق على فمها يبوسها في قبلة امتصت رئتيها في بطء عنيف فكادت تختنق، فتشبثت بحزام بنطلونه تريد الخلاص فلم تجد للحزام أثرا. لم تدر كيف تخلصا تماما من ملابسهما ومتى؟

فقدت الوعي بالتفصيلات. أحست بوحدة الوجود. أرعبها هذا الإحساس؛ لأنها عانت الوجد من ذوبان الخطوط بين الأشياء وانداح التفصيلات بعضها في بعض، لكنها تذوقت مباهج الإبداع ومسرات الشهود خلال الرؤيا الكونية.

بكت كأحلى ما يكون البكاء. خرجت ذاتها الكلية من عينيها على هيئة بخار دافئ رطب يتسلل مثل رحيق الجلنار إلى مسام

صاحبها المفتوحة الشهية لكل ما حرمت منه من عطور سالف الأزمان. لم تتوقف قسوته لحظة. استعمل شعرها ليفة غسل بها جسمه وجسمها مستفيدا من رغاوى التقاء ندي عرقها بطين عرقه. استعاد طفولته مع أثداء أم لا يذكرها رغم أنها تذكر أنيابه وأسنانه. تحولت إلى رقاقة من ثقل حركته وسرعتها فى كل الاتجاهات وهو يتبعثر فى مركزها في دائرة. لقد أحست بعوده الصلب الممشوق مثل مسلة فرعونية قد استدارت فرقتها وطحنت أجزاءها البذرية.

لم تعرف ولم يعرف كيف رجعا من تلك الرحلة السندبادية في سلام، وكيف هدأ كل شيء فجأة واسترخت الأبدان مثل حرير ينسحب فوق رخام، والتقت العيون مثل سماء "الضُهريّة" بعد توقف مطرة رخاخة تركت الجو مبلولا وصافيا ونظيفا في آن واحد.

ابتسمت فانقشعت كل سحب دهر خسيس يفرق الأرواح بمظاهر الأبدان. استمرت ابتسامتها وهى تعبث بشفتيه حتى صنعت من حركتهما في يديها أجمل ابتسامه. اعتدل فأحس بتيار عذب يخرج من بعض خلاياه ليدخل في البعض الآخر. اعتدلت هي الأخرى وتنهدت عندما اجتاحها مضاعفا نفس التيار. نهضت من السرير كما ولدتها أمها بريئة عارية من كل سوء، وقد تحولت تنهيدتها إلى تثاؤب كسول له طعم العسل يتسلل من المريء إلى اتساع الفم السمسمى الحلاوة. لم يجد سببا واحدا لتحقق كل أحلامه التي وهبتها له حواديت جدته العجوز.

نظر إليها عارية تبتعد عن السرير وتخترق الجدار في كل

مكان منه. إنها جنية الشاطر حسن تتجه نحو الدولاب لتسرق بدلتها الريش وتطير. نهض مذعورًا وطار إليها ولم يتنبه لعريه إلا عندما سد أمامها الطريق فستر به مساحة ورقة التوت وهو يحول بينها وبين الدولاب.

- خير يا شاطر.

- ناوية سرقة بدلتك الريش من أجل العودة إلى أبيك ملك الجن.

(ضحكت في سعادة اهتز لها وبها رخام الجنية السائل في موجات بحر تتسابق مع هبّاتِ حقل قمح شعرها العاصف)

- لا، سأبحث لك عن فانلة.

ضحك في حياء ماجن. أخرجت فانلة بيضاء فخمة كأنما شطفتها بزهرة من بياض جسمها الوضاء. وضعت فتحتها في رأسه فلم تدخل. ضغطت وصممت على إدخال رأسه فيها فتمزقت. تركتها في رأسه، وهبطت يداها إلى جنبيها في يأس.. قال وهو يضحك في ابتذال:

- الحقينا بصابونة.

ضحكت ونظرت إليه، وهو يخلص بصعوبة رأسه من الفانلة ويلقى بها على السرير، وبدأ يضع سترته فوق اللحم دون واحدة من شعائر العصر: الفانلة. قالت تعتذر وقد انتقل إليها شيء من ابتذاله:

- الفيل "بتاعى" لم يزل طفلا بين الأفيال، فلم تسعك فانلته.

ضحك بدوره، وكان قد أكمل ارتداء ملابسه وساعدها في ارتداء ملابسها، وكانت قطعة واحدة رقيقة استقرت في رمزية

تلتصق في غرام ببدنها المسحور. سألته:

- سأنتظرك كل يوم الساعة العاشرة، وسأسوى الأمر مع الفيل.

- حاضر يا هانم.

وعاد في اليوم التالي يحكى لها ما حدث مع زوجته، واستمرت تسمع، وهى تتذكر تاريخها القصير معه، قالت له وقد تركت مقعدها الأسيوطي بعد أن انتهى من حكايته وهى تحاول الاستقرار فوق حجره:

- فاكر حفلتنا بالأمس يا شاطر حسونة.

- صراحة، كانت أول حلم افتكره ولن أنساه مهما طال الزمان.

- يا لله نحلم من جديد على شرط تبدأ بسرقة بدلتى الريش.

وغابا، ودار بهما المكان، وتحطمت أشياء، وتدحرجا فوق الحطام، وطارا في الهواء، وتدغدغت حواسهما بملمس بلاط الأرض وخشبها وسجادها وحطامها، وعندما هدأ كل شيء (شأن مصير عاصفة فمثلما تبدأ بالثورة تنتهي بالهدوء) شاهدا منظر مدخل القصر الصغير، وقد اضطرب كل ما فيه. تفككت الكراسي الأسيوطي، وسقطت التحف من أماكنها، وتدحرجت الأكواب من فوق مائدة الطقم الأسيوطي الصغيرة، وتكومت السجاجيد. كيف حدث ذلك. لا يدريان. ومع هذا فقد زاد الموقف إضحاكا عندما انطلقا معا بنشاط العراة يعيدان للمكان رونقه.

* * * * * * *

شدتها صورة حسن تأكله الحمى على سريره وبجواره ابنتها إلى عالم غنى كانت نهايته مثل بداية عالم ابنتها اليوم مع حسن. لقد مات حسونة- بعد سنتين من النعيم الذي عاشته معه -على سريره بسبب الحمى، إنها لن تنسى أبدا ذلك المشهد القديم الذي رأته اليوم يطفو على سطح الزمان من قاعه البعيد. نعم لقد مات حسونة على سريره بسبب الحمى وهي تجلس بجواره حتى أسلم أنفاسه بين يديها فأقسمت أن ترعى زوجته وابنه الوحيد حسن، واليوم تندم على وفائها بقسمها، وقررت أن تدمر ما صنعت. كان القرار غائمًا.

لقد رأت في تمرد ابنتها اليوم خسارة لعمر كامل كما رأت في اغتصاب حسن من ابنتها تلك استعادة لكوكبها الوحيد في فضائها الروحي، استعادة لحسونة السبع ثم إنه كسر للابنة ولحسن معا. تعلم خطورة الأمر ودقته لكن لا بد من تدمير شيء ما، وليكن الذات نفسها. المهم أنها لا تحتمل امرأة أخرى – ولو كانت ابنتها – مع حسن كما أنها لم تعد تحتمل الوجود بدون حسونة الراحل في قاع الزمان والعائد بحذافيره في وجه حسن الذي يجسم سطح الزمان. لقد كانت تخشى شيئا مثل ذلك، لهذا لم تر حسن منذ موت والده، وإنما وضعته تحت رعاية اللواء الفيل شقيق زوجها الذي يفيض حنانا وطيبة وتقوى، تكفلت بمصاريفه بسخاء لم تعهده في نفسها، وأصرت ألا تراه، وأرجع ذلك اللواء الفيل إلى أصول إسلامية حيث ليس من حق اليد اليسرى أن تعرف ما تصدقت به اليد اليمنى.

وقدّرَ الفيل لها ذلك، وكاد يغفر لها كثيرا من الموبقات بسبب

هذا العمل الطيب. وقام برعاية حسن وأقنعه أن أباه ترك قطعة أرض باعتها أمه قبل وفاتها بعد أبيه بعام وأودعته ثمنها لينفق عليه. وعند تخرجه أبلغها الخبر، فدبرت له عملا عند الغول، وأيضًا بإلحاح على اللواء الفيل ألا يذكرها قط عند حسن. وها هي اليوم تدفعها الظروف ضد التيار وتقذف إليها بحسن.

لقد لبس جلد أبيه في أحضان امرأة أخرى، وملقيا في وجهها حجرا يشوه ملامح الراحة فيه بتمرد ابنتها الوحيدة وتحولها إلى ضُرَّة في نفس الوقت. دقت برأسها الحائط مرات وراحت تفكر وتدبر، في الوقت الذي جلست فيه ابنتها تضع كمادات على جبهة حسن و تفكر في سبيل لتنفيذ ما استقر عليه قرارها.

(د) اليوم الرابع

انفرجت أسارير زينب بعد نجاح كماداتها ودواء الطبيب الذي استدعاه البوليس. لقد اقتربت درجة حرارة حسن من الدرجة العادية كما توقف عن الهذيان الذي لازمه ساعات.

عادت إلى التفكير في هدوء حول ما انتهت إليه من قرار. إن حسن بالتأكيد يتعرض لخطر داهم، وأن هناك محاولة لدفعه إلى الجنون. أمها والغول وربما آخرون – لاشك – في تلك المحاولة الجهنمية مشتركون. فحديث أمها عن كلاب سبعة موعود بها حسن بجانب حادث الكلاب السبعة لا يمكن أن يكون صدفة عارضة في حياة حسن، كما أن توريط الغول لزينب في التوقيع على محضر صلاحية الأجهزة بجانب رفض حسن للتوقيع في هذيانه أيضًا لا يمكن أن يكون صدفة عارضة. وهذا كله وحديث حسن – فيما يشبه إحساس بمعضلة عن عدد الكلاب السبعة وصفاتها لا يمكن أن يكون صدفة جديدة أفرزها خيال الهذيان.

فوق هذا وذاك فقدوم أمها والغول معا ثم وجودها في استقبالهما بدار حسن لا يمكن أن يكون رابع الصدف. إذن المحاولة أكيدة والمؤامرة تطل بوجهها المخيف، فما أبعاد تلك المحاولة التي تدفعه للجنون، وما طبيعة هذه المؤامرة السريعة

المفعول والحمى؟ إجابة ذلك أمر مستحيل ولكن الشُبهة وصلت من خيالها إلى حدود عقلها وقد تزيت بزى اليقين وارتدت رداء الحقائق. ما الحل؟

يجب إخفاء حسن مثل فص ملح وذاب لإبعاده عن طريق كل عدو غامض غادر، كما أنه من الواجب عمل المستحيل لسحب محضر صلاحية الآلات من مكتب الغول أو من أي مكان سيستعمل فيه المحضر ربما ضد حسن أو ضد الشركة أو ضد ما تؤمن بأنه الحق والخير والجمال. كيف يكون ذلك؟

تذكرت توأم الروح وصديقة العمر سناء. ابتسمت من لعبتهما المفضلة زمنا طال من عمرهما. لقد حرصتا دائمًا على أن يلبسا نفس الثياب، وأن يقصدا نفس الحلاق لتنفيذ نفس قصة الشعر. كلتاهما كانتا تحملان حقيبتين توأمين تمارسان معا نفس الطقوس في كل شيء. لقد ولدا في طرفي مارس فظل يحتفلان بعيد ميلادهما في منتصفه. وجاء اليوم الذي تزوجت فيه سناء ولم يستطيعا المشاركة معا في نفس الزوج. ومع ذلك فقد أصبحت علاقتهما أوثق بعد زواج سناء. تغيرت طقوس الصداقة. كان على أحمد سامي زوج سناء أن يملأ زوايا علاقة ثلاثية الأطراف حافلة الأطوار الغريبة. إن من واجباته أن يصحب الصديقتين إلى السينما والأماكن العامة وأن يكون مسئولا عنهما كلما مارستا بشكل متضامن المسئولية عنه. كانتا تغاران عليه وكان عليه أن يغار عليهما. كان يفتقد زينب – ومثله سناء – عندما يجمعه وسناء سرير واحد عرضه متران يتسع لثلاثة ولا يتمرغ عليه إلا

اثنان يجتهدان في البحث عن ثالثهما.

ازداد انفراج أسارير زينب وواصلت ابتسامتها ونظرها يتوزع بين وجه حسن البريء مستغرقا في النوم، وبين جهاز التليفون غارقا في صمت عميق.

دق جرس التليفون بجوار سرير أحمد وسناء الفارغ من الشريك الثالث:

- من؟

(تدفق الشريك الثالث من سماعة التليفون وسال يملأ فراغه على السرير).

- زينب!

- شيء لا يصدقه عقل! زينب؟! لقد كنا نبحث عنك في جميع أنحاء السرير داخل زوايا ذكرياتنا لما ضاع من عينينا النوم سويا ودون سبب واضح.

- كيف حال أحمد سامي؟

- لا تسأليني عنه فهو صاحب لسان طويل، ويد أطول تمتد للسماعة لاستقبالك. إنه ينتزع السماعة من يدي وأذنه تلتصق بأذني.

- من فضلك اترك السماعة فورا يا أحمد سامي. الأمر خطير ولا وقت نضيعه. وأنت يا سناء خذي عنواني: ٧ شارع ٧ بالحي السابع. ثم تعالي أنت وأحمد سامي فورا.

- خير؟

- خير لكن أنا في الانتظار.

- حاضر. أنت قطعت السكة؟! طيب يا زينب يا أم "الأمور الخطيرة"!

* * * * * * *

دق جرس الباب مرة واحدة. استيقظ حسن وتحفز مترقبا باقي الدقات. لا دق. تغيير في التكتيك. امتلأ بالشك والخوف:

- لا تفتحي يا زينب.لا مهما فعلوا لن أوقع.
- لا تخش شيئا إنهما أحمد سامي وسناء.
- لا أعرفهما. لن أوقع مهما فعلوا.
- إنهم أصدقائي يا حسن وكلمتهم بالتليفون، وخلاص وصلوا بناء على طلبي.
- لماذا؟
- كي نمشى من هنا حتى لا يجدوك فتوقع.
لا تفتحي. لن أوقع.

(أمسك يدها. عجزت عن الحركة لقوة جذبه لها).
- حسن هل فقدت ثقتك في؟
- لا. لا لن أوقع.
- حسن ألا تحبني.. أنت تحبني يا حسن.
- أحبك يا زينب.. أحبك.
- إذن اترك يدي وقل لي: افتحي الباب يا زينب.
- افتحي الباب يا زينب؟!
- حاضر!!

* * * * * * *

سنتين على الباب ولا أحد يفتح.
(بعد أن نطقت سناء بهذه العبارة، احتضنت الصديقتان وجها لوجه وأحاطهما أحمد سامي معا بيديه من جنبهما اليسار ورفعهما إلى أعلى ضاحكا ثم ألقى بهما فجأة. ثم صمت الجميع هنيهة نطقت بعدها زينب)
- حسن بالله قم، سنمشى من هنا.
(بكى حسن. بلل جبهة زينب وهو يقبلها).
- صحيح سنمشى يا زينب؟ أنا كنت خائف من هنا وأتمنى أن أمشى لكن كيف وإلى أين ولم؟ لم أكن أعرف.. لكن إلى أين

سنذهب؟

- سنخبئك مؤقتًا في بيت أحمد سامي وسناء حتى نفهم ماذا يحدث.

(فهم أحمد سامي وسناء كل شيء دون أن يفهما أي شيء. لكن عليهما أن يصحبا حسن إلى بيتهما النائي المتسع في منطقة الأهرام حيث يطلان على الدنيا ولا يطل عليهما إلا السماء. لقد أدركا أن وجود حسن في بيتهما على أقصى درجة من السرية، وهما خير من يحفظ سر زينب. لِم يحدث ما يحدث؟ لَمْ يحاولا السؤال) تحرك الأربعة في جو ليلى عامر بالأسرار الغامضة التي ليس لها من حل. استسلم حسن مثل طفل يساق نحو الحلاق كي يتم ختانه. سار منوما منهكا مع الأصدقاء الثلاثة).

- أرغب في النوم يا زينب.

- حالا يا حسن ستنام.

- أريد طريق سرير النوم.

- كلها دقائق ونصل إلى أجمل سرير نوم في الدنيا.

- أي سرير؟

- إنه حجر في الهرم.

(نام حسن. تكلمت زينب).

- الساعة الثانية صباحا الآن. لا وقت للكلام لأني لا بد أن أنزل سريعا. لا أدرى متى سأعود لرؤيتكم، لكن حسن ليس هاربا من العدالة، لكنه هارب قاصدا العدالة. توجد محاولة للقضاء عليه. لا أحد يعرف أنه هنا، فلم يراقبنا أحد في الطريق إلي بيتكم. عليكما باثنتين: الصمت ورعايته.. تصبحون على خير.

(نظر الاثنان إليها في حنان وفى صوت واحد ردا على تحيتها، وانصرفت) طرقت زينب الباب في وجل ويدها تهتز

اهتزازات يد تصافح أخرى في حرارة مصافحة طويلة وحماسية. أحاطتها اللحظة عندما انطفأ نور السلم بدوامة من الذكريات والخجل بين اليأس والأمل.ألحت عليها صورة وجه حسن وهو نائم.

- من؟

- زينب.

- ومن زينب؟

- بنتك.

(انفتح الباب فورا ومعه ذراعان مفتوحان وقلب يدق وشفة تقبل الفتاة زينب في عصبية وحرارة وفى كل مكان منها تقريبًا).

- زينب ابنة أخي ! أهلا وسهلا.

(جلست في أول مقعد، ووجهها بين يديها. وبدأ البكاء. تركها تبكى لأنه شاركها البكاء. وكل منهما يبكى على ليلاه، توقفت عن البكاء وحاول كل منهما أن يجفف دموع الآخر بمنديله. كانت دموع العم أكثر ومنديل ابنة الأخ أصغر).

- هل كنت تبكى؟

- هل كنت تبكين؟

ابتسم كل منهما للآخر ابتسامة فيها كل فرح الزمان المثقل بأكوام من الهموم. حكت له قصتها حتى لحظة استقباله لها. إنها تلجأ إليه عندما عز الملجأ، واشتدت الحاجة إليه:

اعتذرت – كما يفعل كل الناس في مثل هذه الأحوال – عن عدم سابق زيارتها له، إنها كانت تعلم أن لها عما يسكن في مصر الجديدة في شارع الأمل في قصر لا يحمل رقما، له باب على الطراز العربي وواجهة على الطراز الفرعوني على عكس كل

أبواب القصور. وعلمها بكل ذلك تم عن طريق الصدفة، فكان شيئًا يشبه المعلومات العامة التي لا تعنى شيئًا، حتى عاشت محنتها الأخيرة، فتصورت أن أملها الأخير يكمن هناك في مصر الجديدة في شارع الأمل.

راحت تبحث عن قصر له باب على الطراز العربي وواجهة على الطراز الفرعوني. ضحك من سألتهم عن ذلك القصر. قال لها أحد العابرين أنه يعرف القصر: لقد رآه في أحد الأفلام التي منع عرضها. سألت قلبها فقادها إلى القصر وهو يرتعد خوفا من أمله الذي يفتح باب الرجاء واليأس معا. تماسك عمها اللواء الفيل، وتحدث إليها بضغط على الحروف المتحشرجة المضطربة أثناء اختناق مخارجها في زوره:

- كنت أحلم باليوم الذي تلقى فيه بنفسك إلى أحضاني....

(صمت طويلا وصمتت أطول حيث كان البادئ بالحديث ليكمل ما فات ويقص ما هو آت).

لازم أحكى لك حواديت ليس لأولها آخر. لكن حتى تعرفي أن الأمل ناداك إلى هنا لا بد أن أنقذك من ضيقك وأنقذ حسن من محنته. سيتم ذلك فورا. بعد أن يتم الإنقاذ سأحكى لك ما لا تعرفين عن حسن وعن أمك وعن... وعن... وعن...!

المهم أمامنا الآن سبيل واحد: أن ننام ونستيقظ مبكرا جدا... في تمام السابعة.. وسترين ماذا سيعمل عمك. بالله يا بنتي اخلدي إلى النوم باطمئنان مَن وجد الطريق الصحيح. سنضبط المنبه على السادسة والنصف.

(وكان النوم عميقًا إلى حد يهدد مهمة المنبه في الصباح، لكن

المنبه ذا جرس يتسم بالإلحاح، فلم يملك الاثنان إلا أن يستيقظا. وفي الحقيقة نهض الفيل أولا، وساعد زينب على النهوض واتجهت معه نحو التليفون المعلق بالحائط ودق: أربعة ثم ثلاثة ثم خمسة ثم خمسمائة خمسة وعشرين..).

- سيادة وزير الصناعة ؟!

- أيوه أنا يا سعادة اللوا.

(حكى للوزير قصة محضر صلاحية الأجهزة، وطلب منه أن يكون عادلا فحسب.. لأن للقصة ذيولا إنسانية تصحبها محاولة للقضاء على إنسان. إن الجريمة لها جانب مالي ونتيجة تشكل سلسلة من الجرائم. الأمر يحتاج لمواجهة سريعة ولهذا كلمهُ شخصيًا في مثل هذا الوقت. طمأنه الوزير وذكر أنه سيهتم شخصيًا بالأمر وسيتصل به في نفس اليوم عما انتهى إليه البحث والتحري. استمعت زينب للمكالمة، وأحست بالراحة وراعها أن يكون لها عم بهذا القدر من المروءة. جلست يتحدث إليها وتتحدث إليه).

- يا زينب يا ابنتي كم أنا سعيد بك. لقد منحت نفسى اليوم إجازة من أجلك. سنتبادل أحاديثنا طوال اليوم حتى نرى ماذا صنع الوزير.

- لقد اطمأنت نفسي يا عمى. لقد كنت أتصور قدرتك هذه على التدخل وحسم الأمر، لكن كنت أشك في إمكانية استماعك لي أو اهتمامك بأموري.

- معك حق يا زينب، لأنك لا تعرفين عنى أكثر من أنني العم الجاحد الذي لم يزركم قط بعد موت أبيك. لكن لتعلمي يا زينب أنني منعت من زيارتكم بأمر من أمك!

- يا ساتر! ولم؟

- هذه حكاوي طويلة. لقد توهمت أمك احتمال أن أرث أباك، أو أطمع فيما ترك من ثروة هائلة. لقد قالت لي بعد موت أبيك "ما تريده من أرض ومال خذه، لكن لا أريد أن أراك قط". اندهشت. قلت لها: " أنا لا أريد أكثر من رؤية زينب ابنة أخي للاطمئنان عليها أما الأرض والمال فأنا الذي يعطيكم عيونه؟". قالت: "إذا كنت صادقا فيما تقول فأنا وزينب لا نحتاج منك غير بعدك عنا "، بعد هذا بشهر أرسلت لي طفلا اسمه حسن، وهو ابن شخص اسمه حسونة كان أبوكِ يحبه ويرعاه، ويتعهد أسرته: كان مع الطفل مبلغ كبير من المال ورسالة ترجوني رعاية الطفل بناء على وصية المرحوم والدك. تأثرت جدًا من هذا الوفاء النادر. وضعت الفلوس في البنك باسم الولد وربيته مثل ابن لي يعوضني؛ لأني لم أرزق بولد.

عندما كبر الولد أفهمته أن أباه وأمه كان لهما قطعة أرض قد قاما ببيعها، وأن أمه تركت فلوس بيع الأرض عندي لحظة احتضارها بعد موت زوجها بشهر. ومن هذه الفلوس ربيناه، أما الباقي منها فلازال في البنك باسمه. دفعته إلى سحب الفلوس من البنك وشراء شقة وسيارة. بدأ حياته بشكل سهل بعد شراء الشقة والسيارة. حقيقي أكبر ذلك في أمك؛ لأنها هي التي طلبت مني في رسالتها إفهام الولد حكاية الأرض والفلوس التي تركتها أمه عندي حتى لا يشعر الولد بجميل أحد تجاهه.

كبر الولد وتخرج من كلية الهندسة. أبلغت أمك بما تم تليفونيا. شكرتني في جفاء لم أكن أتوقع غيره منها. طلبت مني أن أبعث بالولد الذي أصبح مهندسًا إلى الغول من طرفي، وليس من

طرفها، وسوف يجد عملا محترمًا في انتظاره. اشتغل حسن في الشركة التي أنت بها تعملين.

والآن تعرفين سر مضاعفة اهتمامي بالأمر لأنه يتعلق بك يا ابنتي وبحسن وهو ابنى أيضًا. أليس من المدهش أن ألتقي بك لأول مرة في أمر يتعلق به. إنني أتصور أن حسن يكافئني على تربيته أغلى مكافأة بأن كان سببًا في سعيك إلىّ. إن حسن يا زينب قد أرسل لي ابنتي التي حرُمت منها زمنا.... كم كان طويلا!

(بكت زينب وألقت بنفسها على صدر عمها الذي حرم من الأبناء فوجدهم فجأة في شخص زينب وحسن الذي رباه ولم يشعر قط تجاهه بإحساس الأبوة إلا الآن. لقد عاش حسن في بيته منطويًا على نفسه. وبعد أن استقل بحياته كاد ينقطع عن زيارة من رباه بل إنه انقطع تماما بالفعل في الفترة الأخيرة. تكلمت زينب تبلل كلماتها بدموع لعقها لسانها عندما انصبت نحو شفتيها من العينين).

- يا حبيبي يا عمو.
- بل يا بابا.

يا حبيبي يا بابا.استيقظت زوجة عمها الحاجة فاطمة. إنها سيدة طيبة ممتلئة متدلية الثديين العريضين الطويلين السميكين، هادئة الجمال الممتزج ببعض ملامح القبح المقبول غير المستفز، فأنفها الكبيرة تختفي أمام اهتزازات لحم خديها حول نغزتين عن

يمين ويسار، ووردية تلك الخدود الرجراجة تشتعل عند الابتسام. أيضًا فمها المتسع الذي يبتلع حوتا، يتناسب مع استدارة وجهها بشكل هندسي.

لقد رحبت بزينب حتى إنها كلما فكرت في حسن وقصته التي تزداد غموضًا كل ساعة، سحبتها زوجة عمها بصحبة عمها من عالم الغموض إلى إشراقة الابتسامة، وإلى أفراح غامضة تحقق أحلامًا منسية في ذاكرة طفلة بعيدة. دق التليفون. الوزير على الطرف الآخر.

- آسف يا سعادة اللوا! لقد وضعتنا في موقف فيه شيء من الحرج. القصة التي سمعتها منك في الصباح قصة وهمية، فلا صفقة للأجهزة ولا محضر لصلاحية تلك الأجهزة. كل الحكاية أن الشركة فى حاجة إلى بعض الأجهزة، وقد اتخذ مجلس إدارة الشركة بالأمس- وتلك صدفة لا شك – قرارا بتفويض المدير العام بعمل مناقصة سيعلن عنها، وتصادف أن يكون الشخص بطل قصتك الوهمية هونفس المسئول الفني عن تصميم الإعلان فيما يتعلق بمواصفات الأجهزة، وأنه في إجازة رسمية لمدة أسبوع طلبها بنفسه قبل قرار مجلس الإدارة بالإعلان. وكل شيء معطل حتى عودته. وقد اطلعت على كل المستندات التي تثبت هذا. يبدو أنك صدقت بسهولة قصة خيالية لأسباب عاطفية. أرجو أن تعود لمن حكى لك القصة مستفسرًا عن حقيقة قصته الوهمية، وأن تصحح له معلوماته.

- شكرًا يا سيادة الوزير، والحقيقة أننى قد نقلت إليك بالحرف ما سمعته، وسأستوضح سر اللبس الذي حدث، وسوف أتلكأ في

الاعتذار إليك عما أصابك من حرج، لأنني واثق من صدق ما سمعت، ولكنه- لا شك- ينقصه شيء ما سأعرفه بنفسي ثم أبلغكم واعتذر إن وجب الإعتذار، أو أجد ما تزود به عنك ما وقع من حرج.

- لا تشغل بالك، مع السلامة.

(وقف عقل زينب تماما عن التفكير. أحس عمها بها فلم يقطع عليها ذهولها، وتركها في وحدتها السرمدية تائهة حتى تخرج منها وحدها دون مساعدة، ثم يحاول أن يفهم معها كل شيء. لقد كانت إجابته للوزير تمسكا بتصديق زينب، وكان ذهول زينب صدمة وجدت في نفسها مهادا من الغموض الذي استوعبها ليستفحل ويضرب بظلامه على صفحة تفكيرها. مضت ساعة. خشي عمها من الموقف كله خشية العارف بما يصب الصادق من عجز تجاه الأدلة القاطعة على كذبه. إن الإنسان في هذه المواقف إن لم يجد من يصدقه يبدأ في تكذيب نفسه، وتهتز الثقة في العقل ليحل مكانها الخوف والمرض المفضي إلى شيء من الجنون. قرر العم أن يحشد كل ما يملك من قدرات حتى لا يفقد الابنة يوم أن وجدها. أحس بعودة ملامح التفكير تلون ملامح ذهولها تدريجيًا فوق لوحة وجهها. ناداها وسمعته فأجابت).

- زينب!

- بابا!

- يا الله نفكر معا يا زينب.

- أنا كذابة يا عمي؟

- زينب، أنت صادقة و لست بكاذبة. كل الأمر أن المؤامرة

تتسع لتشملك. حقيقي أنا أعرف أن قصة التآمر ضد حسن قد نسجها خيالك، لكن تم هذا بناء على وقائع كثيرة وخبيثة لا تشير إلا إلى التآمر. وحقيقي أيضًا أن تلك الوقائع ترتبط بوقائع خفية لا نعرفها، تغير من القصة في التفاصيل وليس في الجوهر. إن اختفاء حسن أخاف من يتآمر ضده فتغيرت الخطط، وتعقدت الأمور المعقدة أصلا.

- أنا يزداد شكي فيْ الغول. حسن لم يقدم طلبا للإجازة قط، وها هو في إجازة رسمية بناء على طلبه، ومجلس الإدارة يتخذ قرارًا بالأمس، رغم أنه لم يجتمع بالأمس. لا أفهم أنا غرقانة يا بابا.

- أنا زورق النجاة يا ابنتي: أحارب من أجلك الأمواج وافتح لك طريق الأنسام الطرية في قلب ألف عاصفة وعاصفة.

- كم يسعدني أن أراك شاعرًا، وكم يسعدني لو أنزل الآن في صحبتك لرؤية حسن فقد أكلني قلبي عليه.

- لا يوجد شيء اسمه ننزل الآن. أنا أظن أن أحدا ما سيطاردنا ليعرف طريق حسن. أنت هنا آمنة وحسن هناك آمن. ولنتدبر الأمر قبل أن نكشف السر.

- التدابير لله يا ملك!

عاد إليها الهدوء. فكرت فكر، تدبرت تدبر معها دون أن ينبسا بحرف. أمها التي صنعت ما صنعت من أجل حسن لن تتآمر ضده. لم لا؟ إنها يمكن أن تتآمر لتمنع زواج ابنتها من ولد من أصل وضيع! ماأسوأ الفكرة شكلا ومضمونا، وما أسوأ أم تفكر إلى الوراء. لكن أين اختفى محضر صلاحية الأجهزة، وأين

ذهبت معه الأجهزة. كيف اجتمع مجلس الإدارة دون أن يجتمع؟ كيف يطلب حسن إجازة دون أن يطلب؟ أليست زينب سكرتيرة المدير العام التي تعرف كل شيء عن قرارات مجلس الإدارة واجتماعاته وعن إجازات الموظفين وطلباتها؟ لقد عجزت زينب عن التفسير خانها التبرير في موجة من رؤية خطر قادم ومسئولية تخنقها. نظرت إلى إطراقة عمها:

- بابا!

- أيوه يا ابنتي.

- الشيء المؤكد أنني وقعت المحضر باسم حسن وسلمته للغول، فأول الخيط الغول!

- من الآن نراقب الغول.

- سأفعل أنا ذلك. غدا أعود للشركة وعبر عملي أراقبه.

(سكت عمها وسكتت وتقاذفا كرة فيما بينهما اسمها الصمت. لقد كانت الكرة ثقيلة بسبب رطوبة الجو وحرارته).

بحس رجل المخابرات الذكي الخبير أدرك أن زينب تخشى من مراقبة الغول عدوها رقم واحد مع أن عدم مراقبته يعرضها وحسن لخطر فادح. لماذا يا ترى تخشى من مراقبته بمعرفة عمها؟. أصاب سكوته الطويل مقتلا من زينب. ظهر عليها الارتباك والقلق مما جعل كل شيء ينتمي للنهار فيها يفقد نهاريته ويظلم كما لو كان قد انقطع عنه التيار الشمسي فجأة. لقد أشبهت تلك المدينة المعروفة التي ينقطع عنها تيار الكهرباء فتقف فيها الحياة. قرر اللواء الفيل عمها بمنطق قائد المخابرات أن يهاجمها دفاعا عنها ليخرجها من ظلمات الموقف إلى نورها النهاري

الربانى المعتاد.

- زينب يا ابنتي! الآن أفهم كل شجونك: مهما كانت طبيعة العلاقة بين أمك والغول، فليس لأحد بها شأن ولن تكون قط موضوعًا لأحد.

- يا بابا ! بابا!

عاودتها نوبة البكاء. احتضنها. غمرها الأمن وأطاعتها السكينة وأذابها الحب فأذابت الخجل. رحل الخوف مكسوف الخاطر. استسلمت زينب لواقع جديد. لم تحاول فهم هذا الواقع وإنما قررت أن تفهمه.في قابل الأيام وأن تقبله اليوم مع أنه لا يمكن قبوله. كان القبول تسليمًا بما هو كائن وثقة في حقيقة وحيدة أمسكتها بيدها طافية فوق بحر الغرق الأعظم. في تلك اللحظة التي استسلمت فيها لعمها تماما دق التليفون.

* * * * * * *

قبل أن يرفع عمها اللواء الفيل سماعة التليفون، تأمل زينب وجذب نظرها إليه بابتسامة ناطقة:

- أمك على الطرف الآخر يا زينب.

مشدوهة مستغربة حملقت فيه تتساءل. كيف تنبأ؟ لم يكن في إمكانها فعلا فهم قدرة عمها على تصور قرارات أمها. والحقيقة: إن الأم في نفس اللحظات التي كانت خلالها تفكر في زينب وتقرر قبل مغادرتها بيت حسن بعد حادث الكلاب السبعة، كانت هي الأخرى تضرب برأسها في الحائط تفكر وتدبر وتقرر. اتصلت بزينب في بيت حسن في ساعة متأخرة. دق التليفون طويلا، لم يجبها أحد. كانت تفهم ابنتها. تحتفظ في خيالها بخريطة

لسلوكها وردود أفعالها. أدركت أن حسن نقل إلى مكان آخر بعون ابنتها. ما هذا المكان؟ ابنتها لن تلجأ إلا إلى عمها الفيل فلن يقبلها مع حسن إلا هو. زينب لا تعي علاقة الفيل بحسن لكنها لو ذهبت إلى أي مكان آخر مع حسن فلن يفضى بها إلا إلى بيت الفيل.
اتصلت الأم بالغول قبل شروق الشمس:

- غدًا سوف....

(قطع كلامها).

- تقصدين اليوم فنحن في صباح يوم قد بدأ.

- لا يهم ! أنا....

(قطع كلامها ثانيًا وهو مرح غاية المرح).

- أنت لديك مشكلة خطيرة و إلا ما كنت تتنازلين وتطلبين عبدك المطيع فى آخر الليل، وفى تلك الساعة بذاتها.

- لا يوجد وقت للمقاطعة وخفة الدم. اسكت واسمع: اخرج من البيت فورًا. امسح أي أثر في الشركة لحكاية الأجهزة، ومحضر الأجهزة، و أي معلومات عن هذه العملية. أيضًا اتخذ قرار قديم من مجلس الإدارة بشراء الأجهزة وحول الأمر إلى إدارة الأبحاث. أى أثر للاتفاق القديم يقضى عليك و يحيطني بفضيحة كلها جلاجل. الآن اعتمد على ذكائك. تصرف بسرعة خارقة ونظام. مع السلامة.

أقفلت السكة، ونامت في هدوء لا ترد على أي جرس للباب أو التليفون. في التاسعة نهضت ودقت رقم تليفون اللواء الفيل:

- صباح الخير.

(تعلقت عيونه بعيون زينب المشدودة إليه وبيد تغطى السماعة وأخرى تمسك بيد زينب راح يتمتم بكلمات).

- أمك! أمك يا زينب كم توقعت.

- أنت إمّا ولى من أولياء الله الصالحين أو رجل مخابرات بالميلاد!

(رفع يده عن السماعة وواصل ما انقطع من حديث)

- صباح الخير يا سلافة هانم.

- كيف حال سعادة اللواء.

- أنا؟ بخير. الحمد لله.

- من فضلك اعطني زينب.

(قطع المكالمة عامدا. وفى انتظار أن يدق التليفون من جديد، سأل زينب عما إذا كانت تحب أن تكلم أمها، فأجابته بالإيجاب. دق التليفون فورًا ومن جديد).

- من ؟

- أم زينب! أنا من كنت أكلمك منذ قليل.

- آسف لانقطاع الخط، معك زينب.

- أهلا ماما.

- أهلا زينب.

- أنا عند عمو يا ماما.

- عارفه. وأنا سعيدة بهذا، وآسفة لأني لم أفهم موقفك النبيل من حسن. بالمناسبة أين هو المسكين الآن.

- لا أعرف! تركني ورحل فخرجت أهيم على وجهي حتى وجدت نفسي أطرق بيت عمو.

- لا تحزني يا ابنتي! حسن لم يكن في حالة طبيعية. عموما أنا مطمئنة عليك في بيت عمك، لكن عودي يا ابنتي إلى أمك عندما تريدين، وأنا تحت أمرك وأمر حسن سأكلمك غدًا. مع السلامة يا ابنتي.

- مع السلامة.

وضعت زينب سماعة التليفون. وقد اعتراها ألم فظيع. رأسها تؤلمها. لم تستطع التفكير. قصت المكالمة مع أمها لعمها. فزعت من استعادة الثقة في أمها وفقدان الثقة في نفسها. تذكرت حسن، وأحست بنظراته الميتة الثاقبة الصمت الحادة الجمود تقطعها نصفين، وتصيب جلدها بالتهاب بارد. ترى من يتآمر عليه؟ الغول وحده دون أمها؟ رأى عمها عينيها تغوصان في عقلها وقلبها. اقشعر. تدافعت الأفكار إلى عقله بسرعة مخيفة:

- زينب.

- إيه!

- استيقظي وارتدي ملابسك واستعدى لاستقبال ضيفة مهمة.

- من؟ ماذا؟

- أمك قادمة حالاً.

- هل تقرأ الفنجان؟

- لا، فقط أرجل متجسسًا خلف عينيك.

- مرة أخرى تقول الشعر.

- لا. أنا رجل مخابرات يلزمني خيال شاعر للعمل، ولغة الشعر للتعبير عن المصادر الداخلية الغامضة لمعلوماتي. كذلك جزء من عملي جوّاني: أنظر إلى وجوه الآخرين فأرى ما وراء

مظهرها البرانى.

- طيب! لم ستأتي أمي وهى لم تكد تنتهي من المكالمة التي أنهتها بوعد أنها ستكلمني غدًا؟

- لأنها لم تصدق نصف كلامك.

- بخصوص؟

- بخصوص حسن.

- لا أفهم.

- هي تتصور أن حسن هنا، وأنه هو الذي أحضرك إلى هنا، ومن أجل هذا حاولت تضليلنا بإيهامنا أنها ستتكلم غدا بالتليفون، حتى لا نغير من الأوضاع إلى أن تصل بسيارتها التي تقودها بسرعة نحو بيتي الآن وذلك قبل هروب حسن إلى مكان آخر أو إخفائه في مكان خفي بالبيت.

- معنى ذلك أنها ستفتش البيت.

- اعتقد ذلك مهما كلفها الأمر.

- وما معنى كل ذلك؟

- معناه يا زينب ألا تفقدي الثقة بنفسك كل دقيقة، وانتظري الأحداث واربطى الخيوط ببعضها البعض في هدوء.

- أنت ملاك يا عمو! لأول مرة أجد من يفهمني.

- أنا لست ملاكا بل أنا إنسان حزين لأن ابنتي عادت لمناداتي "بعمو" وليس "بابا".

- آسفه يا بابا.

دق جرس الباب. كانت هي. دخلت مثل رجال البوليس يهاجمون وكرا. ادعت أنها افتقدت البيت وتريد أن تتذكر وتعانق

كل شبر فيه لأنها تحس بأنها غابت عن زيارته سبعمائة عام بالتمام. ضحكت في عنف وقالت: "الزمن ما تحسه لا ما تحسبه الساعة". إنها تشعر أن آخر مرة دخلت فيها البيت كانت منذ لحظة سحيقة في قاع الزمان. كانت صادقة في ذلك، ولهذا كانت حركتها في مهاجمة البيت حركة تبدو وكأنها اندفاع عاطفي لمن يريد استعادة الذكريات. لقد ذهلت زينب وعمها من إيقاعية حركتها، وحتى زوجة العم التي فوجئت بها في غرفة نومها قامت نصف مفزوعة، و نصف مكذبة لما ترى، لكنها لم تشعر بعدوانية الهجوم، وإنما بشيء من الفهم المستغرب المتقبل لكل ما يأتي من حوانيت الذاكرة الليلية.

عادت المهاجمة الجسورة إلى مدخل الشقة وألقت بنفسها في أحد المقاعد وتقيأت ضحكة مبتسرة ليس فيها هذه المرة شيء من الصدق، وإن تجلت مثل شعائر كهنوت ساحرات الزمن الراحل في غياهب مقبرة عقل الإنسان. قالت:

- آسفة لإزعاجكم لكن بعد أن أنهيت مكالمتي مع زينب اعتراني إحساس بالوحدة جعلني أفتقد زينب افتقاد من غاب سبعين عاما عن عيني. لم احتمل ثقل استيحاش كل تلك الأعوام. ألقيت بالسماعة وجئت إلى هنا أسبق الزمن إلى زينب.

ما إن انتهى ما قالت حتى انخرطت في بكاء حاد. تأملها اللواء الفيل في ذهول: إنها لازالت في أوج جمالها. لقد كانت دموعها مثل قطرات المطر تنهل من سماء صافية مثل حبات البللور. لقد ارتعدت أثناء البكاء، وصارت اهتزازت جسمها الشفاف ارتعاشات لأشعة الشمس عندما تمزقها قطرات المطر من تلك

السماء الصافية. أحس بأنه أمام حتف الرجال عندما يستعذبون الموت. تأملتها الحاجة فاطمة زوجة اللواء الفيل في ذهول الغيرة، وانكمشت داخل نفسها عندما عادت لتأملها في عيني زوجها. هبطت في بئر عميق لم تشهد في ظلمته غير نفسها. جذبتها زينب في حنان من خطر البقاء في ذلك البئر:

- ما لك يا حاجة فاطمة؟

نظرت الحاجة فاطمة تجاه زينب. رأتها جميلة جمالاً أخرجها من انكماشها في ذلك البئر العميق إلى سهول واسعة، تجرى فيها هربا من وجه نمرة مفترسة، تجذب بوسامة قسماتها القَنِيصة إلى أظافرها المُشْرعة، مثل ابتسامة العاصفة الدوامة لقارب بلا شراع، فوق أمواج بحر الظلمات. لم ينتبه الفيل للقاء المتعاطف بين زوجته وزينب، إنما ظل يحملق في تلك المرأة النمرة. تحولت نظرات الإعجاب إلى شيء من السخرية التي لا تخلو من إعجاب من نوع جديد: إنه الإعجاب الذي يحاول في خشونة أن يتحول إلى فهم. لمح في فساحة عينيها عاصفة قادمة تجتاح كل ما يقابلها من عمران. انتظر انتهاء العاصفة في قابل الأيام لإحصاء الخسائر. تكلمت في فصاحة الديك عندما يؤذن مرفرفا بجناحيه منتشيا بما سيحب من دجاجات:

- زينب! ابحثي عن حسن وتزوجيه. إنني أبارك هذا الزواج وسوف أجهز نفسي لأكبر حفلة زفاف في حياتي. سأنصرف الآن.

اضطربت زينب وابتلعها الصمت من جديد، لكنها حاولت بيد مرتعشة أن تزيل قبلة سقطت على جبهتها من فم بالغ الطعامة،

رغم أنه قد رسم دائرة بيضاوية من الثلج اخترقت الجمجمة. انصرفت أم زينب في سرعة فاقت سرعة دخولها. أثناء انصرافها قبلت زينب وودعت الفيل وزوجته بابتسامة مذهلة تجعل مُستقبلها يحارُ ويغرق في سرمدية من اللامعنى المدمر. بقيت الجماعة جامدة الوجوه والنظرات. لقد امتلأت أعماق الرجل وزوجته ببرودة مرعدة. أمسكت زينب جمجمتها وقد صارت قالب ثلج يغلى دن أن يذوب.. احتالت الحاجة فاطمة لكسر دائرة التجمد القطبية:

سأذهب إلى المطبخ لعمل شاي. كلنا نحتاج للشاي، أليس كذلك؟

لم تنطق زينب لكنها تذكرت الساعات الماضية. شعرت بجسم حسن الحنون يضغط على صدرها كما شعرت بيديه تحيطانها وبشفتيه تزيلان قبلة الموت التي أسقطتها فوق جبهتها حية رقطاء ليس لسمها ترياق إلا حسن.

ما أعجب هذا الترياق الذي تعلقت به فى طاحونة خراب منذ عصر كانت كل الأشياء فيه كبيرة الحجم ومع ذلك فقد كانت جميلة وصديقة ومليئة بالحياة، لقد حماها حسن آنذاك من أول شيء كبير شرير تقيأ فجأة أمامها جماله وصداقته وحياته، لترفض ذلك القيء حتى يبقى في ذاكرتها عاريا وقبيحا وميتا. إنه المدرس الذي اقتحم عليها وعلى حسن خلوة الطاحونة، فانقض على عمرها في عامه السابع ليجعل عجلته تتوقف في نضال لاستعادة حركة مباركة للزمان شلها ذلك المدرس وقبرها في طاحونة خراب. تلك الطاحونة لا تزال في داخلها خرابًا ينتظر أن

يعمره حسن.

آه، من يعلم هل تستطيع أن تحمى حسن كما حماها حينذاك ويعود العمر للدوران فوق منات من أشلاء عزيزة للسنوات الضائعة. رشفت كوب الشاي. نظرت إلى لون الشاي ولاكت الرشفة في فمها للتعرف على طعمه. إنه لم يكن شايا بل هو محلول شفاه حسن. ابتلعت ما رشفت في تلذذ مثير. انتظرت أن يبدأ عمها في الكلام معلقًا على ما حدث. نظر إليها في حنان حار أذاب جمود لسانه:

- كل شيء يكاد يتضح في ذهني لدرجة الغموض. لا بد من حساب جديد نقوم به فى هدوء بعيدًا عن أى انفعال.

(٣)

جلس الغول على مكتبه الشاسع. أحس بالراحة لانسحابه من عملية الأجهزة لقد وفرت عليه السير في واد ضيق متعرج من الوحل المتعفن بين جبلين. لم يشعر بخطورة الموقف إلا عند صدور إشارة "الفوهرر" الآمرة بالانسحاب النظيف الذي لا يترك أثرًا.

لقد كان يدلل "سلافة هانم" باسمين: " أم زينب" و" الفوهرر" يناديها أمام زينب بأم زينب، وأمام الناس بيا "هانم". لقد شغل وظيفة السكرتارية الخاصة لها طوال فترة عملة نائبًا للمدير العام المرحوم زوجها الذي هي أرملته الآن، أما في شقتها الخاصة السرية حيث مَهْدُ الحب العجيب الذي يربطه إلى فلكها، فهناك يحييها بتحية غريبة فرضتها عليه: هاي هتلر! كما أنه يناديها:

"مولاى الفوهرر".

ما أعذب جمالها. تذكر لقاءاته معها في تلك الشقة الفاخرة المغلفة بسجاد عجمي فاخر يشع دمًا أحمر براق مع انعكاسات أشعة الشمس التي تغمر الشقة طول النهار. لقد استقرت الشقة في دور تجاوز العاشر بأربعة أدوار. إنه يعرف دوره الغرامي ويعشق هذا الدور. تجلس هي في حوض البانيو، ويخلع ملابسه ويجلس في حافة الحوض ويتشرف بتدليك جسمها المبارك في جو معطر دفئ. لقد عرف طبوغرافية الجسم ورسم في خياله خطوط الكنتور بقلم من نور. لكن معرفته غائمة مثل خطوط مائية تتسلل من بين يديه فيراها خلف لوح من الزجاج.

لقد عاش مع هذا الجسم كل رحلات سندباد في مراكب من بتلات ياسمين لا تذبل ولا تشبع من خوض بحار بلا قاع ماؤها قد اكتسب عذوبة ملح اشتق من طمي النيل الحبيس وراء السدّ العالي. يمسك بيدها وهى تخرج من حوض الحمام تترنح من فرط النشوة. يحتوى الجسم من وراء المنشفة فيذوب في الهواء. يسير خلفها وقد استعاد وجوده الذائب في الهواء. يصبح هذا الوجود عالما معقدا من القنوات الدقيقة التي تندفع فيها الدماء من الجدران التي تغلفها. تتمدد على السرير عارية بعد أن يلف رأسها بالمنشفة. يجلس تحت قدميها يقبلهما بدبيب أسنانه الرفيق. تتركه يصنع ذلك في دأب وتنام. يشعر بسريان عسل العالم كله فى فمه. يختلس النظرات لجسمها. تتحرك عيناه مبحرة في فرعى دلتا رجليها حتى التقاء الفرعين حيث يتسع النهر عند بطنها ويعود للاختناق عند خصرها النهاري ثم يتسع من جديد ويهدأ في بحيرة

جيدها التي تخرج منه قناة شامخة أبية تتدفق في وجه شمسي نهايته حدود العالم العسلية التي تخفيه منشفة مباركة كانت منذ قليل شطآنا للنهر.

لقد رأى في شفافيتها جمالا خفيا في نفسه. إن مظهره القبيح يبرز أكثر كل هذا الجمال الذي يتدفق ماثلا أمامه في سكون على الفراش. يعيش هذا الحلم وينتظر حابسًا أنفاسه حتى لا تختلط بما يتسامى إلى أنفه من رحيق جسمها وبخوره.

تستيقظ بعد حين من الأحلام التي تعيد لها ما سلف من الزمان بكل ما في ذلك الزمان السالف من رجال فوق السبعين عشقوها واستشهدوا من الحب أمام جمالها الذي يفرض لجلاله عفة وعذرية في الحب.

تفتح عينيها فيرى طاقتين للقدر في أعماقهما تتحقق أمنياته قبل أن يعي بها. تفتح شفتيها فيخطف بصر أذنيه بريق صوتها يتدفق ابتسامة بين الأسنان اللؤلئية مناديا، ثم تعطره الشفتان وتصبغانه بأوراق الورود. يستمع في خشوع. تأمره بتقبيل حلمتي صدرها بأسنانه ثم يتجه لخلع المنشفة عن شعرها حيث يقبل الشعر بوجهه كله ويستقبل نسيمه العطرى بكل كينونته. يأخذ بيدها نحو الدولاب والتسريحة ويعينها في إخلاص العبد الخصي على ارتداء ملابسها وتصفيف شعرها. يسجد بين يديها مقبلا الكعبين كعبًا وراء كعب قبل أن يودعهما برفق شديد في ظلام الحذاء.

هنا تسمح له بمناجاتها وهى تحركه مثل قشة في مهب نظراتها الساجية. لقد علمته الشعر. يظل يلقى بما أعد من قصائد المديح والتوسل. كان يحلو له أن يردد بين يديها بعض التواشيح

وهى تبتسم من حلاوة الترتيل. لقد علمته الغناء وهو يردد:

أيها الساقي... إليك المشتكي
قد دعوناك وإن لم تسمع!
وحبيب همت في غرته،
وشربت الراح من راحته
كلما فاق من سكرته
جذب الزق إليه واتكا
وسقاني أربعا في أربع.

تتكئ عليه وتلمس شفتيه بشفتيها، ونهديه بنهديها وتتقاطع يديه مع يديها حول دائرة من الفراغ... كانت اللحظة التي يحج فيها إلى شطآن العالم غير المرئية التي ليس لها مكان ولا فيها زمان: تبعده عنها برفق، تصحبه إلى السرير، وتلقى به فيسقط في إغماءة تدوم لبعض الوقت حيث يستمر الحلم... يستيقظ محاولا أن يعرف حدود وجوده.. تساعده على الفهم.. يرتدى ملابسه. "هاى هتلر" ويخرج. لا يستعمل المصعد... ينزل درجات السلم ويحاول عدها ومع تصاعد العدّ وبريق الرخام يحس بأنه يصّاعد مع العدد.

تذكر هذه الشعائر الجميلة، وهو يجلس في فراغ حجرة مكتبه. لقد حقق الانسحاب النظيف، وكانت دهشته فائقة عندما اتصل به الوزير، وطلب منه كل شيء بالمستندات حول صفقة الأجهزة.

عاد من مكتب الوزير مرفوع الرأس، وأحس بالنشوة مثل حمّام رملى رطب تحت شمس دافئة تشرق على شاطئ "سلافة" ربة الحكمة المحببة. تعجب من إدارتها الحازمة لكل شيء، كما

تعجب من جرأته في الحديث معها بالأمس وصباح اليوم. لقد كان يمزح معها ويوجه لها النصائح. أحس أن شيئًا من قناعها الوثني قد سقط كاشفا عن وجه آدمي في مواجهة تمرد ابنتها زينب. حاول أن يتمرد مثل زينب، ويكسب أرضًا جديدة في عالمها، الأمر الذي لم يكن يحلم بأن يحلم به قط. لكنها مارست سلطانها، وأثبتت في حزم أن تفوقها لازال يتألق، وفكر في زينب وتمردها ساخرًا. ستنال زينب درسا يعيد مخها إلى مكانه الصحيح في رأسها.

هنا دق قلبه وخاف على نفسه. هل ستغفر لي محاولتي بالأمس لقضاء الليل في بيتها مخالفًا كل طقوس علاقتنا وشعائرها، وهل ستغفر لي جرأتي في محادثتها لى المبكرة بالتليفون؟ لم يسلم من السخرية من نفسه. قرر أن ينتظر في خشوع رد فعلها. لعلها وهى القاسية أن تغفر له عندما تسمع منه قصة الانسحاب النظيف، لكنه تذكر شيئًا قد نسيه. هل يشمل الانسحاب أيضًاالتوقف عن مطاردة حسن ؟ لقدأوصله لحافة الجنون بفضل توجيهاتها. ربما، فحسن الآن -على الأقل- فقد خطورته بعد وقف عملية الأجهزة.

عمومًا ليس من حقه وقف المطاردة حتى يتلقى أوامر "الفوهرر". وضع وجهه على كفه الأيمن واتكأ على المكتب، فرأى قبح صورته على "بنورة المكتب" اللامعة. غطى عينيه بكفه وحاول أن يرى نفسه في نفسه ناظرًا المرآة في خياله. كانت المرآة فراشا بللوريًا في غرفة وثيرة الجدران الحمراء. فقد الإحساس بهذا الوجه القبيح في البنورة بعد أن رأى وجهه الآخر

جميلا في بللورة المرآة الأخرى. اعتدل راضيًا وقد ارتسم لون الغروب على صفحة وجهه. تطلع للتليفون ينتظر الصوت الندى المعطر بأوراق الورد.. صوت "سلا فه" التي يحلو له تذوق اسمها الخمري هذا "سلافة" في ضميره دون أن تسمع أذناه حسا لذلك التذوق. تمنى أن يناديها به، لكنه دائمًا كان يخشى العواقف، إنه يعلم أن سلافة "تميمة" سحرية لا يرددها إلا المقربون. لم يسمع أحدا فى حياته يناديها به، حتى زوجها مديره العام الراحل ما كان يناديها إلا بـ : يا هانم!

لم يدق التليفون. لم يصبر طويلا كانت الساعة الواحدة. أدار قرص التليفون ودار قرص قلبه مع حركته.

- ألوو... مين؟

- أنا "الغول"!

- نعم!

- كله تمام لكن...

- ما تتكلمشى...أنا عارفه كل اللي هاتقوله.

- حاضر.

- بتكلمني ليه أنت عارف إنى م باسمحشى ليك بـ "دا".

- آسف.. الظروف والقلق!

- دي آخر مرة أسمع فيها صوتك وكمان آخر مرة تسمع فيها صوتي.

- يا هانم...

- دا قرار نهائي... الفوهرر لا يتراجع.

أحس مع قطع الطريق التليفوني وإلقاء السماعة الحاسم في

الطرف الأخر غصة في حنجرته.. فك أزرار قميصه.. خلع رباط العنق. لم يشعر بتحسن. أحس بألم شديد في رأسه يندس ويغوص مثل ضربات سكين في صدره. تشبث بأزرار جرس على المكتب. طلب كوب ماء. فزع العامل من تقلصات وجهه وإزرقاقه ومن النحافة التي هبطت على الرجل. لم يدر ماذا يصنع سوى أنه خرج يتعثر في سباق مع الزمن ليحضر الماء.

عاد بالماء وخلفه عدد من الموظفين خرجوا مع صرخاته من مكاتبهم. لم يجدوا الغول حيث تركه العامل. اختفى من الحجرة. جروا في كل اتجاه للبحث عنه وجد أحدهم "بؤجة" ملفوفة في قماش أنيق تكومت تحت قدمي كرسي المكتب الأماميتين. ساد الوجوم. تسلل أحدهم من المكتب في هدوء إلى حجرة مجاورة بها عدد من الموظفين:

-الحقوا.. المدير العام مات في مكتبه.

خرج الموظفون يهرولون وتركوا الحجرة خاوية. ابتسم ذلك المتسلل الذي دفع بالموظفين إلى إخلاء الحجرة بحثا عن قصة موت المدير العام. أدار قرص التليفون:

- أيوه يا سيادة اللوا.. الغول مات من ثواني في مكتبه... الظاهر بالسكتة القلبية.

- أشكرك وواصل مهمتك... مع السلامة.

ألقى السماعة ووجهه ينبض بالدهشة العارمة. كل هذه الأحداث في ذلك الوقت القصير. حدّث نفسه:

- والله كل ده موش معقول.

عاد إلى مائدة الطعام وقد أغلق الخبر فمه. نظرت إليه زينب

في استطلاع خوف، ومثلها زوجته الحاجة فاطمة:

- فيه أيه يا بابا؟

- موش حتصدقى!

- خير؟!

- الغول مات من دقيقة واحدة بالسكتة في مكتبه.

لم تدر زينب أين تضع ملعقة الأرز التي كانت تتجه بها يدها إلى فمها. سقطت الملعقة على حجرها. لم تنشغل بتنظيف نفسها. قالت في وجوم:

- معقول بالسكتة؟!

- دي الأخبار الأولية.

- بابا!

- أيوه يا زينب.

- أنا خايفة على حسن.

- ما تخافيش.. هو تحت الحراسة وحننزل نزوره حالا.

اتجهت الأسرة بثلاثتها إلى الهرم، ومازال الطعام عالقا بأفواههم لا يجد طريقا للابتلاع. تحركت بهم السيارة في ثبات وهدوء مشاركة لهم ما أصابهم من صمت ثقيل. لقد أخذت عقولهم إجازة قصيرة وكل الذي كانوا يفكرون فيه هو وجه حسن، وكانت الساعة الواحدة النصف من مساء اليوم التالي لواقعة هجوم الكلاب السبعة. لقد رأت زينب فجأة تلك الكلاب تنبح حول وجه لحسن معلق في فراغ ربوة الهرم الثابت في استقبال لسيارتهم. دارت الربوة ووقفت الأهرامات على رأسها المدببة تنغرس في رؤوس الكلاب تضغط عليها بثقلها. سقطت رأس حسن على

صدر حنون.. متوتر الطراوة. لقد أحست به مثل صخرة تهبط في تجويفها الصدري ساعة سقطت رأسها على صدر زوجة عمها في إغفاءة مرهق حيران.

- اصحي يا زينب علشان تقوليلنا هو دا البيت والله لأ.

- اصحي يا زنوبة.

أفاقت زينب في ابتسامة خجلي غطت وجهها بندف سحابية مزقتها أشعة الشمس باهرة الضياء. لقد أراحتها الإغفاءة في قلب أم لم ترزق بولد أو بنت: الحاجة فاطمة. وفي شيء عبق من بهجة تشع من بعيد رائحة الياسمين قالت:

- أيوه هو البيت، وسناء في البلكونة تبتسم وتشاور بيديها.

صمت محرك السيارة فجأة. انزلقت زينب من السيارة كما لو كانت تنزلق بغديرين يترقرقان يصبانها من ثوبها إلى الشارع. انتصبت وانسدل الثوب مثل عصا سحرية جعلت الغديرين الغضين يتبخران فيما وراءه. في هذه اللحظة كانت الحاجة فاطمة تخرج بقدميها وبرأسها في آن.

كانت مهمة بالغة الصعوبة حتى ظنت سناء في البلكونة أن السيارة رحم يلفظها كما كانت في تكورها داخله. ابتسمت في خبث وغمزت لزينب لتلاحظ عناء الحاجة في ولادتها من السيارة محتشمة بكامل ملابسها ومع ذلك فقد كان بين قدميها ورأسها فتحتان يؤديان إلى مسيل ضيق يسير طبقا لاتجاه البصر نحو بؤرة محكمة السواد لعلها حزام العفة.

أشرقت ابتسامة زينب من جديد أمام شقاوة سناء في ملاحظة مشهد الخروج من السيارة. أحست بأن وراء وجه سناء أخبار

طيبة تقدمت عمها تجرى مثل طفلة تهرب من مارد أسمر من مردة ألف ليلة وليلة. تبعتهما الحاجة في هدوء فساروا في صف.

البيت في حضن أحراش في منطقة فضاء تتناثر فيها البيوت. مدخله متسع. صعدوا السلالم إلى الدور الأول والأخير. كان هناك ثلاثة يستقبلون ثلاثة: رجلان وامرأة: حسن وأحمد سامي وسناء في مواجهة امرأتين ورجل: الحاجة فاطمة وزينب واللواء جابر الفيل. كان اللقاء حارًا وفكاهيا لامتزاج الجماعة فكل منهم يحاول تحية شخص أثناء تحية آخر له، فتسقط يده الممدودة في الفراغ بين يدين ممدودتين. ضحكوا بعد أن فرغوا من هذه المهمة البسيطة التي تعقدت أمام السرعة التي ولدتها حرارة اللقاء. جلسوا في صالون مريح من كنب بلدي يغوص جالسه بين الشلت والمساند والحشيات. لم تتوقف سناء عن الكلام لحظة واحدة. كانت تتحدث عن حسن طوال الوقت وحسن يراقبها في إعجاب طفل تائه بسيدة جميلة تلاعبه حتى يهتدي. حسن "أبو النوم" نام ونام ونام. كنا نشاهده في نومه فتصيبنا العدوى من شدة ما به من نوم.

استيقظ منذ ساعتين.غير مصدقين قلنا: أخيرا قام عضو نادى أهل الكهف من النوم. أسرعنا إليه فرحين. نظر إلينا وإلى المكان في دهشة. أراد أن يتكلم بعد أن سكن التثاؤب، الذى استمر ثلاثين دقيقة، لكن بدأت معه "زغطة حادة" لمدة ثلاثين دقيقة أخرى. تتابعت نوبات الزغطة تسابق بعضها فصارت مثل زغردة "موتوسيكل" مجنون السرعة في طريق صحراوي.

شاركت عيناه سيمفونية الأداء الموسيقى بسلسلة من التصفيق

على هيئة "بربشة" للتخلص من تجمعات الدموع التي هي عرق المجهود الذي يبذله. ومع هذا الازدحام فهمنا من نظراته المتوسلة مثل كل الحيوانات الوديعة: أنه لا يفهم شيئًا، لكنه يدرك أننا لسنا صيادين ومن حقه أن يفهم شيئًا.

جلست، حكيت له حدوتة الشاطر "حسن".كانت الحدوتة قصيرة جدًا؛ لأني لا أعرف منها إلا فتات ماندة زينب: كان يا ما كان في سالف الليلة الماضية والأوان، صاحبة لنا من زمان اسمها "زينب قمر النسوان": جاءت زارتنا ومعها شاب مرهق تعبان اسمه "الشاطر حسن زين الرجلان". وقالت: في العين صونوه حتى يستريح وينام ويستيقظ فى أمان. وساعتها أتى أنا. وهكذا انصرفت في سرعه طيران. حقيقي لم نكن نعرف أكثر من ذلك. استمع وأعجبته "الحدوتة" وصدق كل ما جاء بها. وقفت الزغطة بنهاية الحدوتة. قام وغسل وجهه وجلس معنا في حياء واستغراب.

سأل عن الساعة والتاريخ واليوم. قال: إن عقله قد فقد تماما يومين وبعض اليوم وأنه ليس لديه لنفسه أو لنا تفسير غير الصبر اليسير، حتى تأتى زينب صاحبة الحقوق الوحيدة في إكمال ما خفي ودق من أمور تلك الحدوتة. بقيت مهمتي المشهورة في مسح الخجل من وجهه، وشطب الغربة والاستغراب من سلوكه، الحمد لله لم أفشل في هذه المهمة قط أعدت إليه حيويته وضممته للبيت وأحمد جالس غيران حيران يقول في نفسه: زينب وتقبلناها على مضض فما شأننا بحسن هذا؟

انفضت سناء من حكاية أمر حسن بسردها المرح، والجميع

يسمعون فى لهفة ويضحكون في بهجة. أدرك اللواء الفيل دقة الموقف، وفكر في استشارة طبيب نفسي، وفكرت زينب في نفس الأمر وأحسا بخطر حكاية التفاصيل أو حتى خبر موت الغول. قرروا إرجاء التصرف قليلا في اتفاق ظهر من أسلوبهم في الكلام وفى نظرات كانت أبلغ من الكلام. تحدثوا كثيرا وضاعت الساعات وفجأة وصلوا إلى طريق مسدود لأن حسن استأذن ويريد أن يعود إلى بيته. وظهر من نظراته لزينب أنه يدرك أن هناك شيئًا لا ينبغي أن يقال أمام الآخرين لذلك كانت رغبته في الخروج أشبه بدعوة زينب لأن تلحق به في بيته. لقد ظهر عليه أنه في مأزق حقيقي وحرج فهو قد فقد جزءًا من عمره.

إن الجزء المفقود يشبه قَطْعًا في خيط العمر والعمر المقطوع لا يصلح لأن يعيش به الإنسان: ماض لا يفسر الحاضر، ومستقبل بلا ماض ليس إلا ماض يشبه التاريخ السحيق. أحس الفيل بحاسة شمه التي هي أدق من كل خبرة أطباء النفوس بأن حسن أعطاه فرصة نادرة لإعطائه دفقة مهمة من الأنباء:

- يا "أبو على" اقعد. أنت مكبر الحكاية زى ما أنا شايف على وشك. عمومًا مفيش حد غريب وحاقولك باختصار عن كل حاجة علشان تطمئن وبرضو عشان الناس اللي استضافوك يعرفوا هُمَّ استضافوك ليه: الحكاية أنك تعرضت لمأزق ممكن يتعرض له كل إنسان شريف. المدير العام حب يورطك فى جريمة غش وتدليس وسرقة، وهددك وفقدت كل أعصابك وأصبت بحمى. لكن ربنا جاب الحل من عنده: المدير العام المرحوم الغول مات النهاردة بسكتة قلبية. وتقريبا كل مشاكلك اتحلت. حتسأل طب

وأنت هنا ليه. زينب خافت عليك تقعد بالحمى لوحدك في بيتك. وما كانشى قدامها حل غير نقلك لبيت أصدقائها؛ لأنها مثلا كانت حتاخذك عند أمها وتقول لها: صاحبي؟

أو عندي وهى كانت خايفة تزورني بعد قطيعة واحد وعشرين سنة؟ أو تقعد معاك في البيت والناس يقولوا عليها إيه؟!

استقبل حسن هذا الإيضاح في هدوء وارتياح. لقد كان له تأثير – في رأى سناء – يشبه تأثير حدوتتها. بدا عليه تفكير عميق يحمل بصمات التأمل المستريح. نهضت سناء لتعمل شاي:

- واضح أن "الشاطر حسن" عايز كوباية شاي عشان يهضم الأخبار الطيبة دى. ما حدش يفرح بالموت لكن مصائب قوم تمسح مصائب قوم آخرين. وعشان كدة تعازينا وتهانينا ياسى حسن: مات الملك، يحيا الملك.

ضحك الجميع بما فيهم حسن. يبدو أن كلامها حل معضلة داخلية حول كيفية استقبال خبر موت مديره العام حتى إنه طلب منها أن "تعمل حسابه في كوبايتين شاي لأن كوباية ما تكفيش". ضحكت وانطلقت مع الضحكة النكتة:

- كوباية تعزية وكوباية تهاني!

ساد الجو كثير من التفاؤل وبدأت زينب تخرج من سلبيتها وتحس بأن نصف الطريق قد مهد نحو حسن كما تريده. نظرت إلى سناء ثم إلى عمها بامتنان كبير، ثم أسقطت القسط الأكبر المتبقى من نظرتها في عيون حسن فاختطف ما فيها من بريق الحب وأغمض عينيه يتذوق شيئًا طال شوقه إليه.

أحس باسترخاء كسول. لم يرغب في تلك اللحظة أن يسمع

مزيدًا من التفصيلات، ولم يطمع أن يحظى في حياته بحب أكثر مما يحيطه الآن.

إنها لحظة حلوة أعادت إليه التصاق خلايا جسمه التي كان يحس بها متناثرة في الهواء تذروها الرياح. لن تعبث به الرياح بعد ذلك، ما دام قد عاد من تلك الرحلة المجهولة سالما بفضل الحب. أحس بزينب كرة من الثلج القطني تتدحرج في جحيم ينطفئ داخله، وأحس بسناء مثل كمادات دافئة فوق جهته، ورأى جذور وجوده في توتر شفاه غليظة تتمتم بكلمات الحاجة فاطمة إليه، وشاف ظهره مسنودًا في قامة الفيل السامقة التي تتواضع من فرط الحب في مواجهته، وطال كل راحة البال في صمت وجه أحمد سامي وطيبته. قال لنفسه: سبحانى.. جل شانى.

لم يصرح بهذه العبارة فهو لا يحب أن يلقى مصير الحلاج حين صرخ مصرحا بما في داخله من حب. شربوا الشاي في استمتاع. شاهدتهم سناء بعين الفنان يسعد بجمهور معرضه الواعي قالت لهم:

- دا شاى سكوتش.

علق الفيل في مواصلة للخروج من المأزق وتضييق المسافة بين زينب وحسن وبين حسن والعالم:

- ليكن الأمس أمر فاليوم وغدا خمر. الجميع ضيوفي ولتبدأ احتفالاتنا باستيقاظ حسن أخيرًا من النوم قبل أن يستحلى الحكاية ويقلد أهل الكهف.

خرجوا جميعا يجرون في المدينة، ثم احتواهم بيت اللواء الفيل في ساعة متأخرة حيث تضمنت الدعوة السهرة والمبيت: كانت

سناء بحيويتها المتوهجة ذرات الفلفل الأسود على طرف ألسنة المجموعة المحتفلة. مضت تعاكس المارة وتختلق المشكلات الصغيرة التي يصبح حلها مفاجأة سارة تضحك العيون حتى تدمع.

وجدت سيدة أدارت ظهرها لعربة ابنتها الرضيعة خلال تأملها لواجهة أحد المحلات. دفعت العربة أمامها واستدارت السيدة تصرخ وتجرى وراءها وتشاجرتا أيهما أم الطفل. بكت الأم الحقيقية فتدخل الفيل وأفهم السيدة أن صاحبتنا "سناء" تمزح وتلعب. صممت سناء على شراء عروسة للطفلة. كانت العروسة تضحك وتتكلم وترقص بمفاتيح بين رجليها. اختفت المفاتيح تحت ثوب العروسة وفاجأت سناء الجميع بكل صوت أو حركة جديدة من العروسة. شاركت الأم في اللعبة. أخذت العروسة وابنتها في عربتها ومضت وعيناها تدمعان من الفرحة والضحك والإمتنان.

جلسوا في كافتيريا. صادقت طفلا وأقنعته بأن يصحبها إلى بيتها فتقدمه لابنها سندباد حتى يحكى له عن مغامراته. حاولت أسرة الطفل مغادرة المكان. بكى الطفل وتشبث بها ورفض أن يغادر المكان إلا معها. تمسكت بالطفل ودخلت في مناقشة جادة مع أسرة الطفل عن ضرورة تركه معها حتى تقدمه لابنها سندباد. كانت المناقشة مضحكة. ظنت أسرة الطفل أنها مجنونة.أشفقوا عليها وعلى الطفل، ولم يحل المشكلة إلا نوم الطفل بين يديها، فقدمته لأمه كي تحمله وترحل به.

في بيت اللواء الفيل، قدمت اقتراحا بعمل قرعة للرجال على النساء، ضحكوا من الاقتراح ولكنها أصرت. " طبعا لن ننفذ

القرعة ولكن النتيجة ستكون طريفة، كان ذلك حجتها في إقناع الجميع. لم يملكوا إلا الإقتناع كانت نتيجة القرعة:

الحاجة فاطمة لحسن

سناء للفيل

زينب لأحمد

كاد يوافق الجميع في ترحيب قلبي عميق لولا بقية من حياء جعلت زينب تدعوهم للنوم. كان بيت الفيل قصرا للتيه. به غرف للنوم أكثر من الحاجة. دخل الفيل حجرة نومه مع زوجته الحاجة فاطمة وهو نادم على فقدان سناء. دخلت زينب حجرة النوم الملاصقة لحجرة عمها. دخل حسن حجرة النوم التالية لحجرة زينب. دخلت سناء حجرة النوم المقابلة للحجرات الثلاثة.

فكر أحمد في زينب ولعن الحظ الذي جعل من القرعة لعبة فحسب. كذلك، فكر حسن في الحاجة فاطمة في جدية، ضحك لخيانته السريعة لزينب، واغتاظ لشفوية تلك الخيانة مندهشا اندهاش أى أوديب يضبط نفسه فى سرير أمه، واندهش أكثر لعدم شعوره بخيانة الفيل.

نسى حسن بسرعة أمر الخيانات أمام صدفة باهرة: لقد كان سريره ملاصقا للجدار الذي يفصله عن زينب. وأصاب زينب الذهول عندما وجدت سريرها ملتصقا بالجدار الذي يفصلها عن حسن وتمنت لو أن سريره يلتصق من الناحية الأخرى بنفس الجدار. فكرت في جغرافية البيت وتمنت أن ما تمنته قد كان تخيله حسن – ولم تفقد الثقة في تحقق هذا قط – لقد تمنت أن سريرها يلاصق سريره لا يفصلهما إلا الجدار بين الحجرتين.

التصق بالجدار. التصقت زينب بالجدار. لم ينم.. لم تنم.. حاول أن يقص الجدار بيديه ورجليه. حاولت أن تخترق الجدار بنهديها وقدميها. أحس كل منهما أنه يقطع الجدار قطعا. احتضنا. التصقا. قبل كل منهماالآخر. لاعبه. داعبه. بكى بين يديه. لكنهما في كل لحظة أحسا بسمك الجدار. لماذا يقف بينهما هذا الجدار الصامت المصمت.

أحمد سامي يلتصق بسناء، الفيل بفاطمة. هل يا ترى بين كل منهما مثل هذا الجدار. بالتأكيد لا، لكن هل يحسانه دون أن يقوم. تقلبا. تعذبا. أحسا بالظلمة وببرودة الجدار وقسوته. حاولا مرارا اختراقه. أحسا بالنجاح في اختراقه نجاحًا ينتهي بالإخفاق. مضى الليل هكذا. دق على الجدار بيديه دقتين. دقت عليه مثلهما كأنما تجيب. عاود الدق. عاودت الإجابة. قرر أن يخرج بحثا عن الحمام في لحظة لم يعد قادرًا فيه على ضبط أعصابه. قررت في نفس اللحظة – التي فقدت فيها القدرة على ضبط الأعصاب – الخروج للحمام. أحسا أن في الحمام الخلاص.

التقيا في نفس الوقت وجها لوجه أمام غرفتيهما حيث خرج مطلا لليمين وخرجت مطلة نحو حجرته في اليسار. تحركا في بطء مثل منومين مغناطيسيًا. التقيا. احتضنا. أحسا بجدار الملابس يفصل بينهما بقسوة. مط كل منهم عنقه من فوقه والتقيا في قبلة أقسم حسن بعدها أن يهدم الجدار. انتهت القبلة العسلية بباقة من الفل في فم كل منهما:

- تصبح على خير.

- تصبحي علي خير.

عادا إلى الحجرتين والتصق كل منهما بالجدار يلعقه حتى لا ينسى طعم القبلة. ناما هناك. اضمحل الجدار وأحس كل منهما بأنفاس الآخر مثل وقود الأكسيجين يتسلط على معدن.لم يحسا بضجيج الشخير يأتي عن يمين وجنوب. فكر كل منهم فى شطحة عارضة حول ما لا يجرى في غرفتي نوم يعمر كل منهما زوج شرعى: رجل وامرأة ثم امرأة ورجل.

(هـ) اليوم الخامس

(١)

استيقظ حسن في السادسة كعادته القديمة. خرج في هدوء عند السادسة والنصف – بعد أن أعد نفه – للعمل. وصل الشركة في تمام السابعة. ترك وريقة صغيرة أنه ذهب إلى الشركة. توجه إلى مكتبه. وجده لازال مغلقا. تحرك عشرات للبحث عن المفتاح. جاء موظف في سكرتارية المدير العام الراحل وسط الهرج والمرج وقدم له المفتاح. لقد تركه له المدير العام الراحل وأمره ألا يخرجه إلا بأمره. اعتذر له. أحس أن الجميع يغيرون معاملتهم له. كانت الشركة مليئة بالحركة. بوليس. نيابة. لجان جرد. دخل مكتبه وأحس بعودة الحياة. استعاد ثقته في نفسه. انتهت حياة القلق والعزلة. كيف؟ لم يدر. قدمت له أوراق كثيرة. تحركت الشركة كلها نحو مكتبه تقول له: حمد لله على السلامة. استقبل كل ذلك كشيء هلامي لا معنى له.

استيقظت زينب في بيت عمها في اللحظة التي فكر فيها حسن. أحس بالجدار يفصلهما في قسوة. توجهت زينب إلى التليفون الذي أيقظها. نظرت في ساعتها كانت العاشرة وقرأت وريقة حسن بجوار التليفون. كانت المكالمة لعمها. أيقظته. كان وزير الصناعة:

ما كانتشى مكالمتك لي بالأمس أي كلام. صحيح وبالمستندات طلعت حكايتك لا أساس لها، لكن مجرد إثارة الأمر أدي إلى موت "الغول" بالسكتة القلبية. أنا لا أفهم أن الناس بيموتوا عفوا بالسكتة القلبية. أنا آسف على اللي قلتهولك إمبارح. فيه أساس للحكاية مؤكد، ورغم أن تقرير الطبيب الشرعي غريب إلا أنه يؤكد شكي ويثير من جديد شكوكك. التقرير يقول: " إن قلب الغول كان قلبا عجيبا ومثيرا. حجمه أكبر من كل القلوب التي عرفها الطب".

"ومع ذلك فالقلب كان يعتريه التليف وينخر فيه الفساد. ولم يبق منه صالحا للعمل إلا أقل من القليل. وصاحب هذا القلب كان يعيش بقوة الأمل وأن سبب توقف قلبه الواقف فعلا هو فقدان الأمل فجأة.التقرير ده خلاني أسأل نفسي: وليه فقد الأمل فجأة ؟ هل لأني استدعيته لمكتبي؟ أم أن هناك ملابسات أخرى معقدة ؟ المهم عايز أقولك حاجتين:

أولا: حسن ضحية الغول حسب حكايتك: أنا اتخذت قرار لأسباب متعددة إنه يكون المدير العام ورئيس مجلس الإدارة.

ثانيًا : إني حاعتمد عليك بجانب أبحاثي لخاصة في فهم تفاصيل قصة موت الغول".

- أنا واثق فيه شيء غريب، حاحاول أوصل له، وعموما حنتفاهم في المسألة دي وأشكرك لرد إعتبارى

خلال المكالمة كانت زينب ترتدي ملابسها وقررت اللحاق بحسن وقد عادت إليها كل مخاوفها عليه.

- بابا.. أنا رايحة الشغل.

- ماشى يا زينب. أنا شفت ورقة حسن جنب التليفون. عمومًا ما تخافيش انتهى الخطر لكن بقى الغموض.

استراحت زينب لقول عمها لأنها وصلت بالدليل القاطع إلى صدقه. لم يخب ظنه من قبل قط في أي أمر. ذهبت إلى عملها. وجدت غرفة المدير العام تغص بالناس. من بين الناس برز حسن شامخًا. رأته. أطمأنت. رآها أحس بفيض حبها له و حبه لها.

وصلت الشركة إشارة تليفونية مفاجئة. يقوم حسن بعمل المدير العام ورئيس مجلس إدارة الشركة مؤقتًا حتى يصدر قرار بتعيينه. بلغته الإشارة في الوقت الذي هدأ فيه كل شيء وتمت إجراءات كثيرة وانتفى القصد الجنائي في موت الغول.

دخل مكتب المدير العام نظيفاً من أي أوراق، من أي شيء جلس في المكتب. لم يستطع أن يعد الموظفين الذين دخلوا للتهنئة. لم يتذكر ماذا قالوا له. وماذا قال لهم. في الثالثة مساء جلس وحده في المكتب كان الموظفون جميعا في بيوتهم.

دخلت عليه زينب. أحس بالعالم يولد. تدافعت الصور أمام عينه. فقد السيطرة على كل شيء فجأة سمعها تقول له:

- ليه بتبكى؟ "اكتشف فجأة أنه يبكى".

قال لها في هدوء:

- امسحى دموعى.

أخرجت منديلا من حقيبتها الخضراء مسحت دموعه. ابتعد عن المكتب وجلس فى صالون الحجرة على كنبة الصالون. جلست بجواره زينب. نظر كل منهما للآخر، وأحس بأنه يفقد نفسه قطرة قطرة من عينيه. اقتربا. تلاصقا. فقد الوعي. ناما.

كانت الخامسة عندما استيقظا. لم يجد نفسه وحيدًا. لم تجد نفسها مهجورة. كانا قطعة واحدة. قررا الانفصال.

- أحبك يا حسن.

- أعبدك يا زينب.

- إيه صورة المستقبل يا حسن؟ أنا خايفة منك ومن نفسي ومن الجميع. أعمل إيه؟

- تاخدى بعضك وعلى بيت اللوا الفيل.

- لكن لغاية دلوقتى أنا خايفة عليك.

- من إيه؟

- موش عارفه.

- الخوف عصره انتهى. فاهمة ؟ أنا دلوقتى عارف راسي من رجلي. روحي لعمك و ماتجيش الشركة تانى قبل ما نتجوز.

- حاضر.

- مع السلامة يا حبيبتي.

- مع السلامة يا حسن.

انصرفت وهى تحلم بعودة حسن. هل يعود؟ لم تحاول أن تجيب على السؤال لكنها تمنت أن يعود. رأت نفسها في "الكوشة" وبجوارها حسن. سيتزوجان. نعم سيتزوجان. غرزت عينيها في الفضاء وتشبثت بوجه حسن الجديد الذي لم تجرؤ على تركه وراءها في المكتب. ندمت على سرحانها المفاجئ، وخشيت أن تفقد عيناها ذلك الوجه الذي طالما طاردته طوال السنوات السبع الماضية في قاع بحيرة راكدة تغطيها الطحالب الخضراء لوجه حسن القديم.

ارتعدت عندما رأت الوجه القديم يهبط في قاع بحيرة الوجه الجديد الشفافة فيعطى سطحه من فرط بُعده اللون لمياه البحر الزرقاء تداعب شاطئًا هادئًا من الرمال بيضاء النقاء التي لم تطأها قط سوى أنسام البر والبحر في غزل يلف الليل بالنهار.

شاهدها المارة تسير مسحورة في الشارع وعيناها المثبتتان في الفراغ يصنعان أفقًا قريبًا ثم يبتعد ليسقط في هوة انحناء الكون. في تلك اللحظة نفسها لم تكن غائبة عن عين حسن وهو يجلس على مكتب المدير العام. سقطت من أمامه جدران الحجرة وتعرى بهواء يهب من عبير فمها ليعرض ذرات جسمه لأشعة غريبة تصدر من لحظ عيونها ذات اللون النقي لمزيج عصير مقطر من زهرة البنفسج وأوراق البرسيم.

أحس بصفحة الأفق تحملها أمامه على المكتب في ثوب دمية عجيبة تعاطف الله مع يد الفنان التي صاغتها فدبت فيها الحياة. فرح بدبيب الطفولة يسرى في عروقه. رأى الدمية بين يديه في حديقة كبيرة لقصر صغير. كان مسئولا عنها بأمر والدته. تذكر والدته. رآها كأننا لم يعرف معه إلا الغربة. كانت تذهب مع والده إلى القصر الصغير الذى كان يبتلع عود أبيه الفارع العريض، ثم يلفظه في يده تلك الدمية الصغيرة: "خليك في الجنينه مع زينب، وخلى بالك منها لغاية ما نروح" لم يحاول قط أن ينظر إليه وهو يلقى بهذه الكلمات الجوفاء إلى والدته التي لم تكن تجيبه إلا بحركة صامتة، تقترب منه وتتسلم الطفلة التي ما تلبث أن تفلت من يدها لتمسك بيديه: " يالله نلعب يا حسن"، كان تقريبا يستمع إلى صوت الدمية مرافقًا لصوت أمه " خلى بالك منها يا حسن.

أوعى تزعلها. فاهم ؟".

تجلس الأم على ملاءتها بعد أن تتخلى عنها بانحناءة كتفيها إلى الوراء. تسقط الملاءة عن نصف جسمها الأعلى، أما الجزء الذي يلف الأرداف فكان يسقط مع الأرداف نفسها فتفترشه لتعيد إلقاء نصف جسمها الأعلى على جذع شجرة. تسقط رأسها على كتفها مرة ذات اليمين ومرة ذات اليسار في حركة بندولية غير منتظمة لأنها في نومتها تلك كانت تحلم بموت زوجها حسونة.

كان يموت في الموت فتضطر إلى أن تبكيه في البكاء. لم تكن تستيقظ من صرخات الطفلين المتعمدة تشكل حبلا من الأصوات يدور صانعًا أسطوانة حول الجذع وحولها وقد صارت قطعة منه. كانت حركات رأسها البندولية وتقلصات وجهها المتغيرة الأوضاع سببًا لا يتوقف لإطلاق ضحكتين مثل صهيل مهرة يجاوب صهيل مهر.

بذل الطفلان جهدًا كبيرًا لمحاكاة ما يصدر عنها من أصوات عجيبة متنوعة حتى اتقنا تلك الأصوات. كانا واثقين أن هذه الأصوات. مثلها مثل حركات الرأس والوجه. تصدر من الشجرة فتبلغها أم حسن لهما. ومن يومها عرفا لغة الشجر. استخدما هذه اللغة التي أتقناها في محادثة الأشجار وملاعبتها. ضمت هذه اللغة كل أصوات الطبيعة الأخرى في الحديقة. تحولا إلى بهلوانين يملأن الدنيا بالضحكات بتقليد كل تلك الأصوات.

ويوم أن ذهبا إلى مدرسة واحدة جلسا في فصل واحد كونا معا فرقة تصنع في المدرسة جوقة ضخمة من قهقهات صغيرة تتساقط في الفراغ مثل ثمر الكريز.

لم يمل أطفال المدرسة جميعا من طلب الاستماع لكل صوت في الطبيعة يخطر على بال حسن الآن ولكل صوت لم يخطر على باله إلا أيام زمان. وقعت حادثة الطاحونة المهجورة. انكسر العالم مع سبع صفعات على كفه من عصا غاب الخيرزان الملفوفة بالسلك. توقف عن زياراته لقصر الحديقة الكبيرة الصغير. كان يقبع في بيته بعد عودته من المدرسة في انتظار عودة أمه وأبيه من هناك حيث عاش واقعًا لم يعد يجرؤ على أن يحلم به.

بكت له زينب تطلب منه أن يصحبها للحديقة. تحول إلى صخرة لا تسمع لا ترى ولا تعرف الرحمة أمام البكاء. يظل في البيت في انتظار أم رآها دائمًا نائمة. الدنيا تدور. لم تكن تهتم به. الوحيد الذي كان يعطيه كل شيء: أبوه. فجأة بدأت زيارات قصر الحديقة الكبيرة الصغيرة تفقده اهتمام أبيه به. امتلك أشياء جديدة ومدهشة لكنه لم يكن يريدها ويريد حضن أبيه وملاعباته.

كان القصر الصغير يبتلع الأب من جديد بعد تسليم الدمية الصغيرة: "زينب" للأم. يغيب الأب ويخرج مجهدًا لا يلاعبه أو يداعبه كأنه يفرغ في ظلام القصر كل ملاعباته ومداعباته ويخرج منها خالي الوفاض. يعودون إلى البيت ويحس بأن الأم والأب يتسارّان كما لو كانا يقتسمان معًا تركة ورثاها في الليل بعد موت النهار.

تعزى بزينب حينما فقد عطف الأب فأحس بها قرقوشة سكر نبات لا تغادر فمه بينما كانت زينب تشعر - فيما يشبه الكابوس - أنها سجنية في الحديقة الكبيرة، وأمها في القصر الصغير مطلقة

السراح. كان ذلك الكابوس يجعلها تتقيأ. وظهر حسن. رأت الحديقة تتسع من تلقاء نفسها حتى أنها هدمت أسوارها بينما راح القصر الصغير يضيق على أمها حتى تنازل عن نوافذه.

رأت حسن في فمها فص ملح يذوب ويوقف التقيؤ. أحبته. لم تكن تحب حسونة ولم تعلم جيدًا أي فرق بينه وبين أبيها سوى أن الأخير أقرب إليها وإلى حسن في الحجم بينما الأول عملاق بطول السماء. لم تكن تكره أو تحب أباها لكنها تأكدت أنه مفتاح لكل شيء في الحياة. الكل يقبل على خدمتها مجرد أن تقول: أنا زينب الفيل، وانتهت في آخر الأمر إلى الشعور بضرورته لها مع تأكدها من أن سر ذلك لا علاقة له إلا باسمه.

أصبحت تحتاج الاسم ولا يعنيها صاحبه. كانت تحدث حسن عن اسم أبيها الذي يشبه الاسم "سمسم". قالت له أنها سألت أمها فأجابتها أن "سمسم" في الحدوتة كان اسم فيل صغير جدًا بينما أبوها فيل كبير والأفيال تفقد أسماءها السحرية عندما تكبر، دون أن تفقد السحر. تقوض حلم الطفلين الواقعي بعد أن وقعت واقعة الطاحونة المهجورة.

ظلت لسعات العصا تصفع كفه تنشر وشما للفة السلوك في العصا على كل قطعة من جسمه تلمسها الكف. وصل به الحال أن كفه كانت ترسم تلك اللفة في شكل "تطعيم ضد الجدري" على كراسات المدرسة. ربط يده بشاش حتى لا يلوث كل شيء بذلك الوشم. في مرة كان في حصة رسم واضطر أن يفك الشاش عن يده حتى لا تلوث الشاش الألوان. وبدأ يرسم لمسات كفه على ورقة الرسم المصقولة. ظهر عليها الوشم على هيئة خطوط

حمراء تعكس مجارى حفرتها لفة السلك على عصا غاب الخيرزان التي ضربه المدرس بها. كرر المدرس ضرباته من جديد؛ لأن الرسم المطلوب كان يجب أن يكون بالفحم وليس بالألوان. تألم وبكت خلفه زينب في صمت ولكنه فرح بذلك الضرب حيث أزال الوشم من يده نهائيًا، وإن تورمت يده بضعة أسابيع. لم يجد أحدًا يقول له أن يده متورمة وأنها فقدت وشمها المخيف. كان يعرضه على الجميع فلم يلتفت أحد إليه. وجاء اليوم الموعود الذي انتهى فيه كل شيء يربطه بالقصر الصغير ذي الحديقة الكبيرة. قال له أبوه في مساء يوم من الأيام:

"روح للهانم، وقول لها يا ستى سلافة ! أبويا عيان. سكت الأب قليلاً ثم أضاف:

-..... عيان خالص.

ذهب إلى القصر. في الطريق أحس بعوده ينحنى، وأنه يوشك أن تتعثر قدمه اليسري في قدمه اليمنى... تسلل أبوه ليحتل طيف مدرس الطاحونة المهجورة:

[ما عنتش تخدم ستك زينب وتسيب شغل المدرسة.. وقول لها: يا ستى سلافة] كلام المدرس وكلام أبيه يتداخل ويعنى أنهم خدم. هو خدام لزينب، وأبوه خدام لسلافة هانم وأمه... خدامة للفيل! لقد كان يعود أحيانًا مبكرًا ويجلس في الحديقة على كرسي وتجلس أمه على الأرض تحت أقدام الكرسي. فهم العالم فهمًا عميقًا أدرك طبيعة العلاقة بين أسرته و أسرة زينب. أحس بأنه يزداد طولا وانحناء.

دخل حديقة القصر دون أن يدرى ودون أن يدق الجرس.

أحس بزلزال انفجاري يهز الأرض تحت قدميه. هاجمه كلب في حجم الذئب. ولى ظهره ليهرب فوجئ بكلبين توأمين وكلاهما صورة للكلب الأول التفت يمينا بحثًا عن مخرج فقفز في وجهه كلبان صورتان للكلاب الثلاثة السابقة. حاول الالتفات يسارًا فتكررت الظاهرة. لقد صار مركز الدائرة من سبعة كلاب تقف على قدميها الخلفيين وتطبق عليه بقدميها الأماميين. صاحب الهجوم نباح يفلق الصخر. أحس بكرة رنانة ثقيلة الوزن تهبط من قفصه الصدري في عمود أسطواني نحو قدميه. لم يعد يرى النباح أو يسمع هجوم أقدام الكلاب الأمامية بعد سقوط تلك الكرة في قدميه. لم تبق هنا فرصة للهرب، ولكنه هرب، كيف؟ لم يعرف ذلك قط. لقد تذكر فيما بعد في هلع مطاردة الكلاب السبعة له. تذكرها مرات ومرات. كان يجرى في طريق طويل محاط بالزرع من الناحيتين ظل يجرى حتى طار فطارت الكلاب خلفه ومع ذلك شرعت المسافة بينهما تضيق.

انتهى الطريق بعد عبور المقابر. قفز بين مجموعة من الناس تجلس في هدوء وقد اتكأت الرجال في مواجهة النساء فوق حصيرة كبيرة من "السمار المر". تطايرت أكواب الشاي الليلي المذاق من أيديهم فزعًا في مواجهة الكلاب. ولت الكلاب الأدبار عائدة عبر المقابر إلى أصلها الأول الذي انبعثت منه. حاول الناس أن يستوضحوا ما جرى. سمع أسئلتهم الملهوفة فلم يجبها، خرج لسانه من فمه. تسمر اللسان ورفض الدخول. حاولوا إعادة لسانه إلى فمه بملعقة الشاي. نجحوا بعد جهد وإرهاق. عرفوه. عرفهم. حكى لهم رسالة أبيه لسلافة هانم ومفاجأة الكلاب على

باب قصرها.طمأنوه. نام. تركوه نائمًا. بلغوا الرسالة لسلافة هانم. وبلغوا الأب المريض بقصة ابنه وبأنهم بلغوا سلافة هانم.

كانوا أناسا طيبين من شركاء أسرته في بؤس الحياة، يسكنون في نهاية المقابر التي تضع حدًا لأرض تملكها سلافة هانم على جانبي الطريق الطويل الذي كانت تطارد حسن فيه الكلاب،إنه طريق عمره المعمور بسباع الكلاب. جلس حسن الضئيل الحجم في مدخل بيتهم الذي لم يكن فيه غير هذا المدخل وحجرة واحدة في عمقه بها سرير عتيق،و يستقر بجانبه سحارة مثل صندوق الدنيا القديمة يحوى كل التحف التي خلفها لأبويه فقراء الزمن الراحل من ملابس وكراكيب. جلس القرفصاء يسمع أنات أبيه في حجرته ، ومع كل أنة يتذكر كلبًا من الكلاب السبعة فتموت الأنة في صدره منتحرة.

عرف أن أمه تقبع تحت أقدام أبيه. كلما وصل إلى الكلب رقم سبعة بدأ يعد الكلب الأول من جديد فالثانى... وهكذا أبدا. كان يرتعد دون أن يهتز. كانت موجات الارتعاد تنطلق من مركز أحشائه وتنكسر قبل بلوغ جلده لتعود إلى المركز في ثبات. أيقظته طرقات على الباب. بدلا من أن يفتح الباب عد الطرقات. فتح الباب قبل أن تهوى عليه الطرقة التاسعة. وقف محتارًا أمام النور الوضاء الذي يشع برائحة الياسمين، ويغسل غبار الليل.عرفها رغم أنه لم يرها من قبل. طالما تمنى رؤيتها واليوم كان. وقفت أمامه برهة كأنما أحست بانبهاره بها، فأعجبها ذلك. قالت له:

- القصر ما فيهوش كلاب. دي لازم عفاريت المقابر. عمومًا

خلى بالك وماتمشيش بالليل تانى لأن الليل مسكون!

سمعها لم يملك أن يستوعب ما قالت، مبهوراً بها ومفزوعًا مما قالت خرج لسانه لينطق، فتسمر أمام ضلفتى بوابة الفم الكبير في الوجه الصغير. ابتسمت:

- فين أبوك؟

أشار بيده إلى غرفة تصب في المدخل بعض الضوء الخافت مصحوبًا برائحة الكيروسين. التفتت خلفها فلاحظ وجه رجل أنيق في يده حقيبة يتقدم خلفها مع كلماتها " تفضل يا دكتور... تفضل... تفضل "دخلا الغرفة. تذكرت صورة فائلة حسونة السبع يوم أن عرته منها أول مرة. نظرت إليه في حب لم يعد يحتمله جسمه المريض. تعلقت عيناه بها وقد شاهدتهما يغوصان في قرارتين تبتعدان. شمت رائحة الموت تمتزج فيهما بروائح الصابون والعنبر والخشب حديث القطع، الذي لازال يحتفظ برطوبة طازجة العفن. ماتت على أطراف شفتيها بقية الابتسامة التي دخلت بها. لم تلاحظ الزوجة القابعة تحت قدمي حسونة إلا خلال متابعتها لانهماك الطبيب في عمله. أشارت إليها بيديها، فغادرت مكانها إلى خارج الحجرة على الفور وفى وجهها دفعت الأم حسن الواقف بالباب ، لا يتوقف لحظة عن مشاهدة معالم ستهم سلافة. قبل الإحساس بأنهم خدم في رضا ويقين لأول مرة. خرج الطبيب معها. وقفت أم حسن وقبل أن تفتح فمها للاطمئنان سمعت صوت السيدة النيزكية النظرات:

- حاوصل الدكتور للمدينة وأجيب الدوا واجى.

خرجت وعادت في نفس الليلة ومعها طبيبان ولفافة أدوية.

عادت للخروج تاركة الطبيبين. بعد نصف ساعة رجعت بخمسة أطباء وحقائب ولفافات. ازداد اصفرار وجه حسن عندما عاد الأطباء. كانوا يحيطون بسرير المريض إحاطة الأم بطفلها الرضيع. ظهر على وجوههم التعب. بلغت أرواحهم الحناجر من العجز عن التنفس في حجرة لو تجمعت الثقوب في جدرانها لشكلت ما تفتقده من نافذة.

خرج الأطباء في طابور وقور طويل. أقاموا جسرًا طبيًا بين الموت القادم وبين سرير حسونة. أغلقت السيدة الباب خلفهم ، احتضنت حسونة في هدوء وحنان بدأت غسله بدموعها التي تذرفها لأول مرة فيما تذكر من حياتها. استعذبت البكاء. استمع حسن إلى بكائها كأنما هو صدى صمت دموع أمه. بكى في هدوء وقد أحس بطابور الأطباء الراحل وكأنه لم يرحل. مر الأطباء أمامه وكأنهم في دائرة دائمة الحركة تلعب لعبة "الثعلب فات.. فات، وفى ديله سبع لفات، والدبة وقعت في البير، وصاحبها واحد خنزير". تسلل النهار إلى المدخل. خرجت السيدة من الغرفة قد حول البكاء وجهها إلى تفاحتين أمريكيتين أنهكهما النضج والطراوة دون أن يفقد جلدهما شدته وتوتره وحريق الأحمر فيه.

أدرك حسن كل شيء من انعكاس وجه السيدة في عين أمه. احتضنت المرأتان لأول وآخر مرة. قبلت حسن واخترقت وجهه ببقية عينيها اللتين سيشاهدهما بعد ذلك في وجه آخر، ورآهما من قبل في هذا الوجه الأخر مع بعض الاختلافات التي لا تخلو من غموض. رآها تقبله مرة ثانية بعد واحد وعشرين عامًا قبلة ربما

تشبه قبلتها الأخيرة لأبيه في هذا اليوم. التفتت لأمه وشفتاها تتحركان في آلية مناقير الدجاج تلتقط الحب من الأرض:

- ما تحمليش هم حاجة. حاخلص كله. المهم من فضلك بلاش أي صوت هنا. خلينا نودعه في احترام لأنه ما يستاهلش البهدلة.

مضت تختفي في فراغ حزمة من الزمان لتعود بعدها للظهور حيث يقف الزمن ويتحرك عدد من الرجال معها لا يبدو فيهم أحد حسن المظهر غير زوجها الفيل. حملت بين يديها قماشًا من حرير أخضر. دخلت أواني ماء إلى الحجرة ثم خرجت. عبقت البيت روائح الصابون والعنبر ورطوبة عفنة لخشب حديث القطع. خرجت من الحجرة لفافة خضراء زاهية تحملها الأيدى مثل حزمة برسيم لازالت يانعة النعيم. وضعت اللفافة في صندوق أنيق كانوا قد نقلوه من سيارة إلى مدخل البيت. تحسس حسن الصندوق وبكى من فرط نعومته ولمعانه. حملوا الصندوق ووضعوه في السيارة السوداء الباهتة من جديد. تحركت السيارة ولم يبق في البيت غيره. لم يشاهد والده بعد ذلك قط. لم ير الهانم إلا عندما ذهب إليها في أحد الأيام بعد ذلك بقليل ليبلغها أن أمه لم تعد تخرج من السرير ولم تعد تخاطبه وأنها تفوح منها رائحة عجيبة. قالت له بثوبها الأسود الذي يبرز بياض وجهها مثل الفلق:

- ابق في الجنينة.

بقى. لم يشاهد زينب. لم يعد لبيتهم. عادت الهانم منهكة ومعها رجل يلبس ثوباً مثل ثياب أبيه بأزرار صفراء. أدخله القصر فانبهر. و وضعه في حمام باهر البياض. ألبسه ثيابًا نظيفة وحمله

إلى بيت جابر الفيل ذلك البيت ذى الباب على الطراز العربي. لم يشعر في البيت الجديد الذي لا يقل عن قصر الهانم إلا بأنه خادم.

فشلت محاولات سكان البيت في إلغاء هذا الإحساس. أحاطوه بالحب بل وبالخدم والعناية لكنه يظل يخاطب الحاجة فاطمة بلقب: يا هانم، والفيل زوجها بلقب: يا بيه. عاش في بيتهما ماضيه. كان يتمنى أن يكون حقا ابنهما كما يحدثانه كثيرا. انه ابن السبع أو كما كان يهاجيه بعض زملائه في المدرسة في وجهه:يا حسن يا سبعاوى وفى ظهره، وإن كان على مسمع منه "عارفين حسن دا ابن إيه؟... هيه ؟ دا ابن سبعة" وفى مراحل تاليه ظن وظن معه الناس أنه ابن سبعة ليس ابن تسعة. كان يكرة الرقم ٧ ويخاف منه.إنه رمز للعفاريت والكلاب والموت. كان دائمًا يعد: ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦... ٨ قافزًا الرقم ٧. كان يعلم مما يدور في البيت أن شخصًا ما يتابع أخباره بل اشتم من المدرسة والجامعة نفس الشيء مع شعور غامض بأنه شخصية هامة.

مضى الزمان واختلطت الأشياء ولم يعد يقلقه غير غموض هذه المعلومة. من هذا الشخص؟ لم يدر لكنه عندما طرح ذلك على نفسه وقد صار أقرب للشباب والنضوج لم يجد غير إجابة حديثة: إجابة غير مباشرة تمثلت في حائط الأمس بينه وبين زينب. في هذه اللحظة أسدلت عليه غرفة المكتب حيطانها. اختفت كل المشاهد القديمة والحديثة ولم يجد في آخر سد من الحيطان ما يوقف نظرته في الزمان غير ست صور فوتوغرافية للمديرين العامين السابقين للشركة. كلهم رحلوا. أصفر وجهه تمنى لو كانوا سبع صور. فجاة رأى الصورة السابعة. إنها

صورته بدون إطار ذهبي مثل الصور الستة المصفوفة بجوارها. تشكل إطار الصورة من صفار وجهه. لقد مات. تحسس أنفه. عض إصبعه بأسنانه. طرق على المكتب بيديه. سمع صوت الطرقات. خاف. ارتعشت يده فوق المكتب ضغط على جرس إلكتروني يعمل باللمس. فتح الباب دخل رجل سترته ذات أزرار صفراء.

- أمرك يا بيه.

- أنا نازل.

انطلق الرجل نحو حقيبة حسن. استراح حسن للفكرة. لم يرد أن يمشي وحيدًا. أحس بعطش إلى الصحبة. وصلا إلى السيارة. دخل سيارته وودع الرجل وهو يتذكر أزرارًا صفراء في صفحة الأرشيف لذاكرته. دار بالسيارة في المدينة لعدة ساعات. لم يفكر في شيء. ركز في القيادة كأنما يقودها لشخص غيره يجلس في المقعد الخلفي. في التاسعة دق باب اللواء جابر الفيل. جذبته لهذا البيت باقة حب معلقة في الفضاء بها فلة وقرنفلة وجلنار. فتحت له زينب. انفرجت أساريره وتأكد أنه محتاج لأن يحتضن الجدار وينام. تركوه ينام وسعادتهم لا تقدر من تلاشي أوهام سيطرت عليهم بأنه لن يعود، على الأقل لهذا البيت، الذي لم يملك لحظة إلا أن يجيء عمق حبه له وتمسكه بانتمائه إليه، نام ولم ير في الحلم غير الجدار يرطب صدره ببرودة الأسمنت عندما يصير رخامًا.

* * * * * * *

(٢)

دخل حسن حجرته وأغلق خلفه الباب، وبقى الثلاثة: اللواء الفيل والحاجة فاطمة وزينب ينظر كل منهم للآخر ينتظر تعليقًا. صمت. صمت. صمت. قامت زينب إلى التليفون وطلبت أمها:

- ماما ! مساء الخير.
- أهلا زينب حبيبتي.
- أزيك يا ماما؟
- كويسة بعد ما سمعت صوتك.
- البقية فى حياتك.
- نعم؟! فى أيه يا زينب؟ خير طمنينى.
- فى الغول.
- الغول؟
- .....
- موش عارفه إنه مات؟
- ما اعرفش..... تكلمى يازينب.
- مات امبارح بالسكتة القلبية في مكتبه.
- لا حول ولا قوة إلا بالله. كان راجل طيب.
- عاملة ايه دلوقتى يا ماما؟
- من غيرك حالتى كرب. ما باعرفش أنام.
- حتتعودي على بعدي!
- موش ممكن. أنا باستناكي.
- اعذرينى يا ماما.
- فاهماكي يابنتى، وأيه أخبار حسن؟ لسه ما انتيش عارفة عنه

حاجة؟

- حسن بايت هنا الليلة.

- طبعا يا بنتى لازم يرجع بيته. الحمد لله!

- ماما أنا عايزه أقول لك حاجة.

- قولى يا زينب.

- أنا باحب حسن.

- عارفه.

- يعنى إيه عارفه؟

- يعنى دا حقك وأنا بأبارك علاقتك بيه.

- صحيح يا ماما.

- موش صحيح ليه؟ دا ابننا.

- اشكرك يا ماما. حاكلمك بكره. تصبحى على خير.

- تصبحى على خير يا بنتى.

استمع اللواء الفيل لصوت زينب في المكالمة واستنتج صوت الأم. لم يرتح لشيء. سأل زينب في استنكار:

- موش دا تسرع منك أنك تكلمى أمك بصراحة؟

- ليه؟

- المسألة لا تحاج لمزيد من التكتم. أمك تآمرت مع الغول ضد حسن. دا موش تخمين. دا مؤكد. جمعت معلومات عن كل شيء. الغول استخدم معلومات من أمك لعمل غسيل مخ لحسن وتوصيله لحافة الجنون، بعد كل ما جمعته من معلومات اطمنك ما عدش فيه خطر على حسن لكن أمك عدوة حقيقية ليه. وواضح إنها بتهادنك. لعلك فاهمة أنا باقول إيه دلوقت.

- فاهمه. حليت دلوقت ألغاز كثيرة لكن حاستغل مهادنة ماما وآخذ موافقتها على جوازى من حسن وحاكون حذرة منها بعد كده. موش عايزه اكسب عداءها.

- خلاص يا زينب ما عنديش مانع وخاصة أن أمك بتقوم بحركات شهامة موش معقولة وموش مفهومة.

- إزاى؟!

- أمك زارت زوجة الغول وقدمت لهم مبلغ أسطورى من المال، وادعت ليهم أنه كان أمانة عندها.

- غريبة.

- ودا يشبه اللى عملته مع حسن يوم ما ماتت أمه بعتت لي هنا بمبلغ من المال ووصية من أبوك عشان نربيه.

فتحت زينب فمها من الدهشة. لم تعلم أن حسن ابن البيت الذي لجأت إليه أخيرا. أحست بعقلها يدور، ومع ذلك فقد امتلأت بقدر غامض من الاطمئنان. أمها تراعى حسن، وحسن تربى في بيت عمها. فهمت أشياء كثيرة... كثيرة جدا بل أكثر من اللازم. نظرت إلى عمها في بلاهة ولم تتكلم. قرر العم أن يغلق باب الحديث مؤقتا حتى تستوعب زينب ما سمعت. اقترح أن يتصلوا بسناء ويدعونها وزوجها للحضور أو يذهبوا إليهما. قامت زينب في صمت إلى التليفون مثل إنسان آلى:

- مساء الخير يا سناء.

- زينب موش معقول. أنا كنت باطلبك من دقائق وكانت السكة مشغولة.

كنت باكلم ماما.

- وازّيها

- كويسة الحمد لله. عمى عايز يكلمك.

- لأ! لحسن يكون عايز ينفذ قرعة امبارح.

ضحكت زينب دون أن تدرى أنها تضحك. ضحكت كثيرًا تذكرت أنها كانت في القرعة من نصيب أحمد سامي زوج سناء. قالت لسناء وهى تضحك:

- وأنا باطالبك بأحمد.

- ماشى بس حآخد حسن.

- لأ.. ما حدش حياخد حسن منى.

- زينب! أنت طماعة. عمومًا ادينى قرعتى.. نصيبي.. عمك الفيل لأنى بأحب الأفيال.

تقدم اللواء الفيل وتحدث إليها:

- أهلا نصيبي وقرعتى.

- أهلا حبى.

- الجو هنا محتاجك يا سناء هانم.

- هانم مرة واحدة؟! عمومًا تأمر بايه؟

- تعالوا نقضى الليلة مع بعض.

- ماشى لكن ادينى فكرة عن حالة الجو عندكم الليلة.

- حسن نام وزينب عايزة جنبيها الناس اللي بتحبهم ويحبوها وأنا معجب بك. والحاجة فاطمة أميرة وموش بتغير وأحمد جوزك زيها أمير.

- نص ساعة نكون عندكم.

نظرت زينب إلى عمها بامتنان لقد أحست أنها في حاجة إلى

سناء. حضرت سناء ومعها كائن صامت دائم الابتسامة اسمه أحمد سامي ويشغل وظيفة زوجها. ملأت المكان بهجة لكن عينها لم تسقط قط عن باب غرفة حسن. كانت تتمنى أن يفتح الباب ويخرج. أحست بشيء ما غامض يربطها به. لم تأسف لذلك ولم تشعر قط أنها تنافس زينب لأن حسن هذا كائن رجولي أكبر من أن تستوعبه امرأة واحدة. نظرت إلى زوجها نظرات خاطفة وأحست أنه يصلح واجهة عضوية لرجل اسمه حسن. ازدادت ابتسامة زوجها عندما أدرك ما يدور داخل زوجته. إنه شخصيًا رأى في حسن ما ينقصه ورأى في نفسه ما ينقص حسن ورأى في زوجته امرأة تحتاج لرجل يتكون من مجموعهما واطمأن إلى أنها تحلم بالمستحيل. وهذا حقها بل حق كل إنسان.

وبحس الكلب البوليسى أدرك الفيل كل شيء وازداد إعجابًا بسناء كما ازدادت سناء إحساسًا برجولته المهدرة على أعتاب العادة مع الحاجة فاطمة. تفاهما وفهم كل منهما الآخر وأحس بتقارب أشبه بتقارب البنت وأمها عندما تتحابان.

كانت ضحكاتهما مبالغ فيها لأنها مضاءة بهذا الفهم. زينب نفسها كانت تعيش هذه اللعبة الشفوية الباطنية في هدوء شديد لأنها كانت تحس بملكيتها الكاملة لأحمد سامي دون أي حرج وتتطلع بشغف لاختراق الحائط الذي ستقبل بعد قليل على احتضانه. فجأة قرروا أن يناموا بعد أن قطعوا من الليل شطرا يخل بالنهار. ناموا. أحست زينب بتعاسة شديدة طوال بقية الليل؛ لأنها احتضنت الحائط بينها وبين حسن في استسلام العاجز عن اختراقه. بينما اغتالت سناء أحمد سامي حتى لن يبقى منه شيء

لأسابيع قادمة، وحطم اللواء الفيل شموخ نهود زوجته ذلك الشموخ الذي طاول الجبال.

* * * * * * *

(و) اليوم السادس

(١)

أحس حسن بالارتياح المخيف عندما كان أول وجه قابله في الصباح هو وجه سناء. استيقظ مع شروق الشمس وقد أثقل الشروق العيون المنغوّسَة! رأى سناء تجلس وحيدة في مدخل بيت الفيل وقد وضعت رأسها بين يديها خشية السقوط بعد أن تركت زوجها جثة هامدة في السرير قد يستيقظ يوما ما. تأملها حسن في هدوء تأمل عابد الشمس لحظة الشروق.

أحس بزينب تضطرب في هدوء وجه سناء. تقدم إليها. أرسل إصبعا من أصابعه يخترق غياهب شعرها المكبل بالقيود. فاجأتها عاصفة ثلجية تجتاح قدميها فأطلقت يديها بحثا عن قدمين افتقدتهما تحت سطوة الثلوج. اعتدلت. رأت حسن. نسيت قدميها ولم تشعر بحاجتها إليهما. تطلعت إليه في ابتسامة ودّعت الحدود. كان وجه حسن يشبه نار الأوكسجين تتسلط على المعدن فيسيل ويذوب في خشوع.. عيناه تشعان رغبة القادر الجبار.. فجأة رأى نفسه في عينيها. قبل جبينها ملقيًا عليها بصفيحة ماء بارد:

- إيه المفاجآت دي؟

(قرأ على جبينها شفتيه كأنما يقرأ بخته في الفنجان) صباح

الخير.

لم تسمع نفسها وهى ترمقه في إعجاب من وجد نفسه في صورة:

- صباح الخير.

- عن إذنك أروح الحمام.

أحس بألف سوط تنهال على ظهره لتدفعه نحو الحمام الذي ارتسمت صورة زينب على بابه. لمس الباب فلم تحس يده إلا ببرودة الحائط. ارتدى ملابسه وقرر الرحيل.

- سناء ! من فضلك أبلغى زينب بمبيتى برة الليلة.

- ولم ذلك؟

- أريد خلوة لاستعادة توازني فلا بد أن أحل مشاكلى مع نفسي وقد تكاثرت!

- هل لي نصيب بين مشاكلك؟

- هذا فوق ما أريد.

- متى أراك مرة أخرى؟

- متى شئت، وخذى رقم تليفوني(وهنا أعطته رقم تليفونها).

- أشكرك.

- هل أنتظر منك مكالمة الليلة.

- لا تنتظري شيئًا.

حياها. أعادت إليه قبلته في جبينه. أحسَّ بأن الجبين محل منطقة نفوذها. ابتسم لهذه الفكرة ووضع في جيبه رقم تليفونها، وهنا شعر بنفس الشعور الذي افتقده من زمان. المرأة هى النصف الدافئ فى نفسه. وهى التى توحي له بأنه يتطلع إلى كسر

قيود رجولة هائلة المدى في رنزانة جسمه. لكن منذ زمان عجزت النساء – وحتى زينب – عن دفع هذه الرجولة للثورة والتحرك. عاد إلى سناء وهى نربو إليه واحتضنها بقوة ساحقة لمدة لحظة بالغة القِصر، لكنها كانت كافيه للبقاء تيارًا من الماء الدافئ في نفسيهما ساعات طويلة بعد ذلك. وفى السابعة كان هناك في المكتب اللعين يحملق في الصور الست محاولا أن ينسى صورة سابعة رآها بالأمس.

جلس على المكتب يستقبل مزيدًا من المهنئين. استمع إلى كمية خرافية من تهنئة الموظفين ومباركتهم. لم يشعر بالرضا لذلك. أحس بأن العالم يضيق من حوله. تمدد بكل خلاياه حتى يتسع العالم الذي ضاق.

نظر إلى الصور. كانت الصورة الأولى لأمه، والثانية لسيدة قصر الحديقة الكبيرة الصغير، والصورة الثالثة لطفلة نورانية اسمها زينب، والصورة الرابعة لامرأة جبلية النهدين ينادونها الحاجة فاطمة وناداها: فاطمة هانم، والصورة الخامسة: لامرأة مثل النمرة وثباتها في ابتساماتها التي يشارك فى إبداعها جسم ينادى كل الرجال: إنها سناء التي صاحبته هذا الصباح من لحظة استيقاظه حتى رآها سناءً يطل من إطار ذهبي لصورة مدير عام، والصورة السادسة كانت لامرأة مجهولة يبحث عنها فى كل النساء ولن يلقاها بسبب أزرار صفراء تكمن فى أعماقه، ويغلق فى وجهه الطريق إليها. والصورة السابعة كانت صورته تخفى وراءها صورة رجل في قفص وجه حزين دموعه أزرار صفراء شاهدها فى عيون كل المهنئين الساخرة دون سخرية.

تأمل الصور ولم يصدق. أحس بدوار. دارت الصور. وقفت على رؤوسها في الهواء. استعادت أجسامها. كان منظر مذبح جزار. سبعة أجسام عارية تدلت رؤوسها وشهقت أرجلها في الفضاء. نظر إلى سبعة أزواج من الأرجل المفتوحة المعلقة في خطاطيف. قرأها فكانت عددًا: سبعة ملايين وسبعمائة وسبعة وسبعين ألفا بعد السبعمائة والسبعة والسبعين:

٧٧٧٧٧٧٧

سبع سبعات. ما شاء الله! ما أبهج نهاية العالم. خاف أن ينهار فألقى برأسه على المكتب وأغمض عينيه. عاد إليه توازنه سريعًا، وابتسم ساخرًا من نفسه. لم يعد يخشى الرقم سبعة. إنه يتذكر الآن كل الأحداث التي ارتبطت بهذا الرقم في حياته. وهذه الأحداث طبيعية لا تخيف إلا طفلا لا يعي غير استجاباته الشرطية. لا بد أن يودع هذا الطفل الذي لا يريد أن يتزحزح من خياله.

خص صورة زينب بالنظر. اعتدلت الصور وظهر وجه امرأة عامر بحبه اسمها زينب. أحس بالراحة وتمنى أن يضمها إلى صدره. اقتربت الصورة. تلقاها بيديه. احتضنها. قرر أن يتجاهل برودة الصورة ذات الملمس الرخامي لحائط، ولذا رفعها ليقبلها. لم يجدها لزينب وإنما لوجه زادته السنون جمالا، لعله استمده من زهرة الجلاديولاس فى حديقة كبيرة لقصر صغير رأى فيه هذا الوجه هكذا مرة واحدة فى عمره فى لحظة اختفاء وجه أمه إلى الأبد. أحس بقسوة هذا الوجه. تلاشت ملامح القوة مِنْ الوجه ذعرًا عندما هب لمواجهته من داخل حسن سبعة كلاب تنبح ،

وتهاجم هجوما لا رجعة فيه. ايقظته امرأة من حلم يقظته. ذابت الصورة في وجه المرأة. الوجه ناعم رقيق حنون:

- يا افندم... يا افندم... يا افندم!

- هه!..... أيوه؟!

- بعض الأوراق للتوقيع!

- تحبى تعرفينى بنفسك الأول.

- ايزيس فى مكتب سكرتارية حضرتك!

- أنا آسف فى زحمة المهنئين.. نسيت أسماء ووجوه كثيرة.

يا افندم أنا مستعدة أقدم نفسى لك كل يوم!(ضحكا). قدمت له الأوراق بانحناءة خاصة أجبرت عينيه أن تسقط على "تورته" من القشدة شقتها السكين إلى قسمين متماوجين بسبب هبوب رياح غامضة فيما حول القلب من صدرها. أحس فى حلقه بتدفق المياه المطهرة من شرفة تتهدل صخورها من حلمة جبل. اختطفت بعينيها ما انتزعته منها عيناه. أحس بشيء من الضيق والحرج. ابتسمت له بعيون واسعة كحلها سواد ليل بلا نجوم. كانت الابتسامة تلقى من عيونها إليه كل ما اختطفته من عيونه ليكون حلالا زلالا. زال الحرج وانفرج الضيق. نطق اللسان:

- شكرا يا ايزيس.

- العفو يا افندم.. أنا فى خدمتك، لكن لي عندك حاجة!

- أمرك؟

- أتمنى ألا أعزل من السكرتارية الفنية.

- ومن يعزلك منها؟

- يا افندم كل مدير جديد يهرع إلى تغيير سكرتاريته بناس

سيثق فيهم. أرجوك أن تمنحنى فرصة أثبت فيها جدارتى بثقتك.

- يا ايزيس. أنا مهندس فى الشركة قبل أن أكون شيئًا آخر. وهذا يعنى أننى زميل لك وللجميع، فليس لى أحد غيركم.

- هذا أملنا فيكم يا افندم.. والآن هل تأمر بشىء؟

- شكرا يا ايزيس.

انصرفت بعد انحناءة تحية تقدم من القشدة قاعدة "التورتة" فى براعة تقديم وجهها. لقد كانت خفة الانحناءة أشبه بقلب صينية "بسبوسة" ساخنة على طبق من الحرير بيد خبيرة مدربة. صاحب الانحناءة اتساع وحشى لعيون تعد وتنفذ الوعد فى ولاء. أحس بها، وقد ولته ظهرها – تخوض في بحر من الزئبق فى المسافة الشاسعة بين مكتبه وباب الغرفة. استدارت له بوجهها وهى تمرق بين ضلفتى الباب بظهرها وفى وجهها وجد ودلال. بخروجها سكتت الصورة السابعة التى لا وجود لها إلا فيما وراء الخيال. ليس هذا اليوم يومًا عاديًا. بدأ بسناء، وسريعًا قدم له إيزيس. سناء التى عرفها بالأمس كانت تخبئ له فى غدها إيزيس. ماذا يحدث فى هذا العالم؟ لماذا يتفتح فى داخله بستان من الورد وتقبل الدنيا عليه؟ لم يجد إجابة، فنظر فى الأوراق وانهمك فى العمل.

* * * * * * *

(٢)

أحس كل قسم فى الشركة بيد المدير العام الجديد تمتد إليه فى أول يوم عمل. رؤساء. أقسام جدد وشبان كانوا مغمورين لا يدرى بهم أحد إلا رئيس قسم الأبحاث الذي صار مديرًا عامًا.

رؤساء أقسام معزولون تتعرض أعمالهم للجرد عن طريق الرؤساء الجدد. لم يدر أحد من المعزولين مصيره. دفة العمل تسير في نشاط وقد غطى الفزع الكسالى والسماسرة والمتلاعبين. الجميع يتلفت حواليه. عانت الشركة ثورة تقتلع من الجذور كثيرًا من نظم العمل. إن المدير العام الجديد عاش سبع سنوات يجرى أبحاثًا ويقترح نظمًا ويتصور هيكلا جديدًا للشركة. اكتشف الجميع أنه يعرف كل خلل وأن كل شيء جاهز عنده.

قرارات كثيرة كانت أوراقا ميتة في ملفات بعثت فيها الحياة بتوقيع منه. لم يتحمل الكثيرون المفاجأة. ذهول ونشاط ومحاولة لفهم ما يحدث أثناء أداء العمل. أقسام تنشأ وأقسام تصفى لحساب الأقسام الناشئة. كانت إيزيس أول من صدم بكمية العمل التي ينبغي أن تقوم بها. تحركت مثل إوزة مبتهجة تطير فى بركة دون أن تغادر الماء. لقد ابتلت ملابسها من العرق الذي سال من فرط الحركة. جاء موعد انصراف الموظفين. سمعوا أن المدير العام لازال فى مكتبه. لم ينصرف أحد. فقط خرج عمال المصانع يتحاورون في حديث بلا نهاية حول ما يجرى، وتركوا مكانهم لوردية جديدة بعد أن أبلغوا تلك الوردية الجديدة بالأخبار المذهلة.

انتعش العمال وتفاءلوا. لقد سقطت فجأة أصنام طالما اضطروا لعبادتها وهى تعوق الإنتاج ، وتحول الشركة إلى مكتب سمسرة وسيط. أذهلهم هذا المدير العام القناص. لا غرابة فى ذلك فهو ابن السبع: ابن عامل سبع. فى جولة للمدير العام الجديد بالمصانع سمع هتافًا باسم: ابن السبع. لم يعد ابن سبعة. أحس بشيء من الارتياح.

لم يكن لديه وقت لتذكر أي امرأة أمام إيقاع الآلات المنتظم في هرمونية مع يد العمال. لم يسمع هذا النغم للآلات من قبل فى مصانع الشركة. كان النغم نشازا يجرح أذنه. أدرك مفعول قراراته. اجتمع به وفد من العمال. شكروه في كلمات قليلة لأنهم فجأة رأوا معظم ما يشكون منه قد أزيح. تفكه أحد العمال وقال للمدير العام أنهم سيشكون قريبًا من افتقاد أسباب الشكوى لو سارت الأمور هكذا.

تقدم إليه عاملان. طلبا الانفراد به. كان الفزع يغطى منهما الوجوه. توقع أن يسمع شيئًا مخيفًا. صرّحا له في وجل بقصة مؤامرة سبعاوية ضده كلفهما بها الغول بعد أن صحبهما في سيارة إلى قصر صغير له حديقة كبيرة تمتلكه سيدة مثل فلقة القمر. شاركت السيدة فى رسم الخطة. لقد قبضا أجرًا كبيرًا مصحوبًا بتهديد بالموت فى حالة إفشاء السر. إنهما الآن قد خافا من الصمت كما يخافان مما صدر عنهما من كلام. طالا عفوه وحمايته في آن.

لم يستغرب حسن الأمر في أن العاملين ملأهما الخوف وظنا أن حسن يعلم كل شيء، فقد أثبت فى أول يوم أنه يعلم أكثر مما ينبغى. اعترفا، لكنهما يخشيان من التهديد بالموت. فزع حسن من فرط جبنهما. أدرك أنهما بائسان لكنهما لا يصلحان وأمثالهما للإنتاج والعمل. إن كل من هب ودب وملك المال أو الجاه قادر على شرائهما. طلب منهما الاستقالة فورًا وطمأنهما بسقوط تهديدهما بالموت لأسباب يعلمها ولا يعلمانها ووعدهما بتدبير أمر مستقبلهما فى مكان آخر لا يستحقان فيه ثمنا فى سوق الرجال.

كانت الساعة الرابعة حينما استدعى المدير العام إيزيس. في هذه اللحظة تذكر أنها امرأة وأنه رجل. كان ثوبها الرقيق يلتصق بجسمها فتتحدد ملامح هذا الجسم فى الفراغ وقد تحول الثوب إلى طلاء وحشي من الألوان فوق جسمها مثل وشم فوق جسم كاهنة. اكتشف أنه منذ ساعات كان يصدر إليها الأوامر في خشونة وأنها كانت تتحرك في حلزونية انطلاق جندي، هربًا من رصاص ينطلق من مسدس. ضحك. ستعلم الآن أن له وجهين. لقد كسبت بعرقها وجه الساعات السابقة، فهل تكسب وجه الساعات القادمة؟

رق صوته قليلاً. طلب منها أن تبلغ الموظفين أنه يمكنهم الانصراف الآن. فلم يعد لانتظارهم معنى سوى الخوف أو النفاق. خرج الموظفون مثل خروج الأطفال من فصولهم عندما يدق جرس الحصة الأخيرة. عادت إليه مبتسمة: "لقد انصرفوا" تأملها طويلا، وقال لها في هدوء وبرود.

- لم ينصرفوا جميعًا.

ابتسمت من جديد فأضاءت الحجرة بنور ربها.

- بالفعل انصرف الجميع ما عدا المدير العام.

- وأنت؟!

- أنا قطعة من المدير العام.. يعني سكرتيرته.

- أنا لدى رغبة في البقاء هنا ساعتين، ولست بمحتاج أحدا في معاونتي، ففي إمكانك الانصراف.

- واجبي يحتم عليّ الانتظار. صحيح حضرتك لن تحتاجني كما تظن لكن من الممكن أن تحتاجني فجأة فلا تجدني... ومن واجبات السكرتارية أن تظهر كلما خطر ببال المدير خاطر

مفاجئ وذلك لاستثمار هذا الخاطر فورًا وإلا ضاع وتخسر الشركة.

- أنت حافظة شغلك جيدًا، لكن ألا ينتظرك أحد؟

- لا يا أفندم! أنا فقط انتظر زوجًا في الخارج منذ سبع سنين... زوجًا مفقودًا!

- ألا تعرفين عنه شيئًا؟

- إنني أعتقد أنه يراسل أسرته وهي تخفى عني كل شيء.

- غريب! لكن أين تعيشين؟

- في عش الزوجية السعيد.

- وحدك؟

- مع الجدران، تردد صدى اسم قديم لي كان يناديني به زوجي دون الجميع.

- وما ذلك الاسم؟

- زينب.

- زينب؟!

أصابته الدهشة والذهول ولكن أخرجه عن احتمال الوقوع في اضطراب عصبي إجابتها مؤمنة على قولها السابق في صوت تغسله الدموع:

- نعم.. زينب.. اسم سمتني به أمي، وكانت تحب أن تناديني به على الرغم من اختيار أبي لاسم إيزيس، وبموت أمي فقدت الاسم القديم إلى أن تزوجت فأحياه زوجي ثم هجرني ومعه زينب وبقيت إيزيس وحيدة لا شقيقة لها من روحها.

- أهدأي يا إيزيس وانسي زينبك كما أحاول أن أنسى زينبي.

بكت في حرارة وفى وداعة. دعاها إلى شرب كوب من الشاي فى بيته مع قطعة من الحلوى. وافقت. قرر فجأة مغادرة المكتب. طلب منها الاحتفاظ بمفاتيح مكتبه. نظرت إليه في امتنان. عجزت عن الحركة. أحست بأن ثقة هذا الرجل وعطفه من الأشياء التي لا تقدر بثمن. فهم ما يدور برأسها. عرف أنه كسب إنسانًا شريفا فى صفه. سار إلى سيارته. سارت خلفه مثل رياض ناعمة تطارد شجرة سرو سامقة يراها في عكس اتجاهه مسافر في قطار الحياة.

لقد كان طول قامته واعتدالها مما يهول ويلقى بالمهابة. أجلسها بجواره. لم يشعر بها. ركز نظره في الطريق وهو يرى في نهايته حديقة كبيرة حول قصر صغير. وفى الحديقة طفلان يلعبان في بهجة وتوثب ،هما زينب وحسن. تأمل فجأة إيزيس بجواره تستند على جذع شجرة وتغط فى نوم موسيقى تتنوع عليه الأصوات. ضحك عليها وضحكت عليها زينب معه. توقف فجأة أمام بيته. تبخرت الحديقة بمن فيها وبما فيها. التفت إلى إيزيس وجدها قد نامت فعلا والقت برأسها داخل المثلث المحصور بين التقاء الباب الأمامى ومسند مقعدها. كان نومها صاسًا ووجهها بريئًا، وظهر أنها تتنفس فى بطء وهدوء فيزول عن وجهها تعب يوم طويل.

أيقظها برحلة حنان قامت بها أصابعة فى كثافة شعرها. استيقظت دون فزع. رفعت وجهها إليه فيما يشبه الخجل والاعتذار، وفى شيء من الارتياح. دخلا بيته. أسرعت بفتح النوافذ. ظلت تتحرك فى كل اتجاه تزيل غبار الأيام الماضية،

وتعيد تسكين الأشياء في أماكنها. وقف في شرفة البيت بناء على تعليماتها ينتظر انتهاء مهمة طالما تعطشت إليها شقته.

لقد كان يقوم بتنظيفها وترتيبها بنفسه. لأول مرة تلمس مثل تلك الأنامل الشفافة الكريمة برودة هذا المكان العطشان. في الشرفة: حاول أن يعرف من هو؟ طالت وقفة الشرفة بدأ بالتعرف على نفسه من وقائع هذا اليوم المشهود. لقد أحس اليوم ولأول مرة بلحظة افتقدها بعد حادث الطاحونة المهجورة، يوم ضرب رأس المدرس بأصيص حتى شج رأسه.

لقد رأى رأسه الصغيرة في ذلك اليوم البعيد تستحم في سحابات السماء وتعبث بندفها القطنية. لقد أنقذ زينب. لا يستطيع أن ينسى نظرات الامتنان في وجهها ممزوجة بإعجاب، هز طفولته من الأعماق. لقد مثل يومها في خلوته حركات الرجال الكبار وعامل زينب بعطف لا يجيدة إلا الأب الحنون مع ابنته. فقد هذه اللحظة في اليوم التالي وعينه تسقط مع عصا المدرس الخيرزانية تنقض من ارتفاع شاهق وتستقر فوق يده مثل شجرة عالية تسقطها الرياح فوق فرخ صغير. استعادت أذنه الكلمات التي أحرقت كرامته" ما عنتش تخدم ستك زينب وتسيب شغل المدرسة" بكت زينب. بكى بعض الأطفال. ضحك آخرون. لقد اجتاحه القهر وخفض رأسه الذى – منذ ذلك الحدث المهيب – لم يستطع أن يبذر في داخله المدمر كرامته من جديد. أمسك بهدا الحيط وسار معه في تتبع دقيق لشريط طويل لأحداث حياته، يرسم قوسا أمام عينه.

استطاع الآن، الآن فقط أن يدرك كل شيء لقد كان كرة

تتقاذفها الأيادى. ربما كانت هذه الأياى رحيمة به لأسباب تخصها لكنها كانت تروى شجرة الذل التى اقتلعها عمال المصانع من جذورها اليوم. تنفس بعض الهواء وانداح الزمان الحاضر فى زمان ما قبل الطاحونة، وما بينهما خرج فى زفير طويل. تحددت خطوط المستقبل فى هلامية يذوق تفاصيلها ولا يعي طبيعة طعم ما يذوق. لقد استحضر لعبة "عروسة وعريس" التى لم يمارسها قط سوى يوم الطاحونة المهجورة.

كم كان العالم صافيًا وشفافًا تتراقص فى أجوائه الورود مثلما يحدث له اليوم. لقد عاش فترة الجامعة تصب كل الزميلات الدفء فى نفسه وتملأ رجولته أشواقًا للتحرر والانطلاق من حبسها الطويل. لم يجرؤ قط ولم تجرؤ، تلك الرجولة علي التحرر و الفعل. وعاشت الزميلات فى نفسه قصائد من الشعر الغامض الدفء. كانت تلك القصائد تثيره وتحرضه إلى أن تيأس، فتفقد قوافيها، وتتلاشى أوزانها، وهكذا ماتت كل النساء في نفسه.

أدرك أن الجامعة مجتمع يبعث بالحياة فى موات النفس، لكنه قاوم تلك الحياة. فقد الجامعة وتجمدت عواطفه ونمت أكثر وأكثر شجرة الذل، فكان يتجاهلها بالتفانى في العمل. كان يعمل كثيرًا و لا أحد يعير عمله التفاتًا، إلى أن أصبح عمله كيانًا مستقلا عنه، لا تربطه به علاقة إلا استلام الجوائز باسمه، أو إلقاء الكلمات نيابة عنه. تطاولت المسافة بينه وبين النساء. كانت زينب تلهث فى الاقتراب منه فتكتشف أنها تجرى فى الاتجاه الخاطئ. اشبهت مجهوداتها فى ذلك عمله فى الشركة. لقد تحولت مجهوداتها إلى مؤسسة مستقلة عنها. علاقتها بها علاقة الواجهة التى يقذفها

البعض بالحجارة أو يقرأها آخرون فى سخرية أو فى أحسن الأحوال تتلقى الغبار والأتربة دون أن يعنى بها أحد.

فجأة منذ أيام هذا سادسها، تحركت الدنيا داخله وخارجه بسرعة. اليوم الأول: أزمته مع المدير. اليوم الثاني: يوم الطرقات السبعاوية على الباب وعبر التليفون والنور فى صحبة دقات الساعة. اليوم الثالث: زيارة زينب له. اليوم الرابع: في بيت سناء، والفيل، ورحيل الغول. اليوم الخامس: تعيينه مديرًا عامًا وعودته إلى بيت الفيل. اليوم السادس: بدأ بسناء ويمر الآن بإيزيس، وأين؟ فى بيته بعد يوم ثرى أراق فيه ما تجمد من نتائج عمله سنوات سبع على أرض الشركة ليطهرها ويعيد لها الخصوبة. وماذا بعد؟ ها هو يستعيد بفضل سناء ثم إيزيس شعورًا عاشه فى مجتمع الجامعة النبيل لكن فى ظروف مختلفة. إنه اليوم طفل يوم الطاحونة لا العبد الذليل الذي عاش عاجزًا حتى كسر من جديد رأس أفعى.. بل وأفاع عددًا. لقد حرمه من الانطلاق فى الجامعة انكساره وعدم قدرته على التحليق.

سأحلق منذ اليوم ولن أقبل الذل قبل أن أذوق الموت. أحس برائحة البرتقال تنشر فى الجو من حوله عطر الزمن القديم، عندما كانت هذه الشجرة "البرتقال" تسود أشجار غابة الدنيا. لقد تحولت موجات العبير البرتقالى إلى أنفه وأذنه ولسانه واستحم فى تيارها ذي القشرة المضيئة اللون. التفت. كانت إيزيس:

- الشاي جاهز يا إلهي أوزوريس المحبوب.

ابتسمت في مرح من يمزح أفدح المزاح جدًا. شاركها ابتسامتها فى جدية لا تقل جدية، قرر أن يقشر "البرتقالة" التي

انعقدت عن ظهور العبير منذ لحظات. نظر إلى استدارة جسمها البرتقالى وهو في تلون خد الجميل، وذكر فى صمت اسم الله الأعظم الذي أبدع كل هذا الجمال. عاشت نظرته إليها فى شهود للنور عندما يضاء من زيتونة وجهه الجديد. رأت نفسها فى نظرته. قررت أن تكسر كل مرآة تراها بعد اليوم. لقد قالت لها المرايا أنها جميلة، لكن لم تقل لها أنها مضيئة. تحولت إلى شمس تحتضن بأشعتها قمرها. جذبته خلفها فرأى القمرُ المنيرُ وجهَهُ المظلم فى شعرها حجابًا لولاه لأحرقته أشعتها.

جلس على الكنبة البلدى فى طرف وجلست فى الطرف الثاني وبينهما صينية الشاي. ابتسم فى اعتذار من نسى شراء الحلوى فى الطريق. ضحكت:

- لا أحب الحلوى بأنواعها.

- هل تقصدين أنك لا تحبين نفسك؟

-.... [ابتسامة متأملة ترنو في الفراغ]

لم يكن يرن فى المكان سوى صوت رشفات الشاى تتلاقى فى الهواء بين فمه وفمها فى اصطدام تقبيلى متفجر. سرحا. من ينظر إليهما يرى عيونهما معلقة فى الهواء ببقعة خضراء فى الحائط تتوسط لوحة لواحةٍ فى صحراء الفلا الشاسعة الجفاف. فجأة أحس بأن كوب الشاى فارغة. سحب عينه من البقعة الخضراء وصوبها نحوها فرأى البقعة الخضراء فى سواد عيونها. سمعت صوتًا مرتعِشًا:

- عارفة... أنا ما اعرفتش قصة حياتى إلا النهاردة.

- معقول؟!

- نفسى أحكيلك اللى ما حدش حكاه لى.

- احكي

وحكى وهى تنصت فى شراهة شجعته على الإسراع فى الكلام. امتلأ وجهها بالدهشة. لم تصدق هذه البساطة التي يحدثها بها إنسان كان يفترض مما يحكى أنه في غاية التعقيد النفسى والحساسية. عرفت أمه، أباه، سلافة هانم وعلاقتها بأبيه. جهله بخلفية موافقة أمه على سلوك أبيه، قصة العزاء المدمر مع زينب، رحلته فى بيت اللواء الفيل، الأكاذيب التي عاشها حول أرض باعها أبوه وأودعت أمه ثمنها عند اللواء الفيل، تصوره لكيفية التحاقه بالشركة، تجدد علاقته مع زينب، كارثة محضر صلاحية الآلات، علاقته السحيقة الأغوار مع زينب، قصة ما يفصله عنها من جدار، سناء، وإعجابه بها وإعجابها به. رغبته الحالية الجامحة في ممارسة لعبة عروسة وعريس مع كل النساء. تصوره العجيب أن كل النساء يجتمعن الآن فيها.. في إيزيس... الآن والآن فقط لأنه يثق في الغد لكنه لا يستطيع أن يتنبأ به على وجه الدقة.. فهل يمكن لإيزيس أن تعيش معه "الآن" لأنها تريد ذلك... فقط تريد ذلك ولا تفكر فى غير "الآن" مثله، مع ثقة بلهاء فى الغد، دون أن ترتبط هذه الثقة بأسماء.

انتهى من حديثه وغرق داخل نفسه. رأت نظراته تتدفق من عينيه المفتوحتين نحو رئتيها مثل تدفق الهواء من الجو إليهما عبر أنفها. شافت نفسها تذوب في تيار نظراته الداخل وتنتشر ذرات فى الهواء الذي يتنفسه.

حملت صينية الشاى إلى المطبخ فى هدوء. لم يحس بها تغادر

المكان. أحست بريقها يجف. شربت كوب ماء. جف ريقها أكثر. عادت مبتسمة وقد اكتشفت أنها تتحرك منذ أكثر من ساعة حافية القدمين دون أن تحس ببرودة البلاط أو بتحرر رجلها من الحذاء. عادت إلى مكانها من طرف الكنبة. أذهلها تقوس الكنبة فيما يشبه الدائرة حيث يلتقي طرفاها. لم تجد مناصا من وجودها حيث يوجد في نقطة على المحيط. أمضيا وقتا طويلا يتماحكان في صمت. من يراهما يظن نفسه أمام مشهد تمثيلي غريب. تتحرك يدها اليمين مثل ثعبان ملتف ينفرد فوق ثعبان يده اليمين ، في نفس اللحظة التي يدور فيه خدها اليمين على صفحة خده اليمين فيصبحان مثل حجري الرحا لو تحرك الحجر الثابت في عكس اتجاه الحجر الأعلى الدوار، وأثناء ذلك لم تكف قدمه اليمنى تعابث قدمها اليمنى. لقد تحولت بشرتهما الخارجية إلى مجموعة من الأصدقاء يلتقون بعد سفر طويل وغياب.

فجأة بعد اندياحهما في بعضهما، حتى أن كلا منهما يحس بأجزاء جسمه من خلال أجزاء جسم الآخر، حدث الاكتشاف الأكبر الجبار. لقد تقابلت أربع شفاه. هنا جرى ريقها بغزارة. زال الجفاف. همس كل لسان لأخيه بأوجاعه. نهضا من مجلسهما دون أن يتوقف احتضان الأصدقاء في بث للأشواق. تحركا معا كتلة واحدة مثل طفل يتعلم المشي ويخشى السقوط.

سقط الطفل بالفعل فتلقاه السرير في حنان. انفصلا قليلا. رأته في غيبوبة متيقظة. جردته من ملابسه. استسلم لها في وداعة دمية. استلقى في مظهره لحظة الميلاد. رأت فيه ابنا وضعته بعد ولادة متعسرة، أعقبت حملا جاء بعد سنوات طوال من العقم.

حاولت أن تتخلص من ثوبها فلم تعرف الطريق، لكن القدر تدخل مستعينًا بيديها تتحولان إلى مقص يقص الثوب من طوق العنق إلى مالا نهاية.

أحس بالماء الدافئ يتدفق مخترقا مسام جلده، فى إصرار كما تسرب في مسامها ذرات من مسحوق عظام رجل عاش فيما قبل التاريخ. لم تشاهد من قبل هذا العدد من الجماجم التى ترقص فوق هياكل عظمية. أحست بنشوة الرقصة، وميزت جمجمتها فى ملامح كل الجماجم الراقصة.

اعترتها بهجة الموت عندما يقدم تفسيرًا للحياة. شاهدت فى نشوة السكارى رجلا يعزف بعوده موسيقى المحراث، التي ترقص مع خطوطها المستقيمة – الجماجم فى كل الاتجاهات. أحس بنسمة باردة فتغطى بشعرها، فهبت رياح ساخنة تلهب الوجوه. أعانهما الخدّر الذى تناولاه فوق طرفى الكنبة على التمتع بالهدوء والإيقاع الناعم البطئ للزمان. كانت دقات صلصلة هيكليهما العظميين تدير الأفلاك، وتحرك العالم.

تمنت أن تظل روحها تنسحب من نخاعها في تنميل حراق، يرحل عن خلايا جسمها في حركة نهر ينبع من الجنة. تمنى ألا تغادره رعدة الحمى العذبة التي يعانيها. تكلما فى نومهما وسارا فى طريق طويل، يبيعان الفل لأطفال العالم، بعملة قديمة نادرة اسمها القبل التي لا يصدر عنها صوت. ضاقت الدنيا حتى صارت جلدا لهما مثل ثوب لا يتجاوز مقاسات الجسم المتوحد لجسمين يتحابان إلا في حدود مرونته عند الارتداء. سعدا باتساع ضيق الدنيا وما يتيحه لهما من حرية.

لم تشهد الدنيا زفافا بمثل هذه الرقة والنعومة، وافتقاد الانفعال. تمتعا بصبر من تغزل الخيط ثم تنقضه لتغزله فى شكل جديد أبدا. فاجأتهما الشمس تتسلل من نافذة نومهما في رقة الأم توقظ ابنها الوحيد ليذهب للعمل. استيقظا وهما واثقان أنهما لم يناما ، فقد حكى كل منهما للآخر فى نفس اللحظة نفس الحلم الذى لا يكون إلا فى يقظة.

أعدا الإفطار معا. أكلا فكانا يهضمان الطعام قبل ابتلاعه. عرفت يدها طريقها إلى فمه مثل يده تماما، اضطرا أن يضحكا طويلا... طويلا لسرعة إيقاع اليدين منهما في تناول الطعام نحو فم الآخر. اعتراهما الفخار بخرق العادة وأحس كل منهما بامتلاء الآخر، فاسترخت الأيدى ورفعت الأطباق بعد أن طويت صحف الجوع فى العالم.

تحركت السيارة بهما نحو الشركة، وكل منهما يركز فى الطريق لأنهما لم يلتفتا لنظرات ركاب السيارات الأخرى المارقة بجوارهما، تنظر إليهما فى حسد وإعجاب.

إن جمال ايزيس بجواره يدير الرؤوس، لكن وجهه المهيب يفزع نظرات المعجبين، ويثير فيهم الإحساس بتكافؤ الجمال والمهابة. لم يعرف أحد سبب كل هذه المظاهرة من النحل الشغالة تحيط بالسيارة، وتحولها إلى خلية تبحث عن ملكتها، كما لم يعرفا، هما شخصيًا كيف يفسران هذا الشهد الذي يملأ منهما الفم ويغطى اللسان. كان في طعم الشهد مذاق رحيق ازهار البرتقال الذى يعبق السيارة مثل بخور سحري.

* * * * * * *

(ز) اليوم السابع

(١)

استرخى على كرسي المكتب في هدوء يتأمل يديه تعبثان بفنجان القهوة أمامه. ابتسم من فكرة عارضة مرت برأسه. لا بد أن يحاول قراءة الفنجان بعد ارتشاف قهوته المصرية (التي ما زالت تحمل الجنسية التركية، رغم زوال الاستعمار التركى).

إنه لا يعرف أبجدية قراءة الفنجان لكنه واثق من إمكانية اكتشافها. انكفأ الفنجان على وجهه فترة من الزمان ثم اعتدل. نظر فيه فرن التليفون مرتين متتاليتين. سناء ومدام سلافة هانم: موعدان الأول على الغداء في أحد المطاعم في الساعة الثالثة والثاني فى قصر الهانم الصغير ذى الحديقة الكبيرة بعد انتهاء الموعد الأول. أعاد عينه تبص في الفنجان، ورفع سماعة التليفون لثالث مرة ليجيب الوزير:

- قريت جرايد النهاردة ؟

- ما باقراش جرايد !

- مصيبة! فى كل جريدة صفحة كاملة بتهاجمك، وتهاجمني عشان عينتك. أنت جردت كل الرجال المخلصين الأكفاء من مناصبهم. وفى يوم واحد – من غير دراسة – غيرت نظام الشركة. أنا كنت بأثق فيك.. ليه عملت كده؟!

- حأكتب لسيادتك تقرير يوضح كل حاجة. عمومًا أنا لا

يعنيني كلام الجرايد.

- طيب والمحاكم.. كلهم بيهددوا برفع قضايا ضدى وضدك بالتضامن.

- أنا مستعد انتحر أمام المحكمة لو تجرأ واحد منهم ورفع قضية.. أنا عندي مستندات تحبس كل واحد فيهم أشغال شاقة اللي باقي من عمره.

- أنت واثق من نفسك!

- ثقتي في عدم اهتمامي بما يحدث لي في المستقبل ما دمت من أنصار المستقبل.

- عموما يا حسن خلى كل عملك محسوب لأنك ربما تكون مستعجل شوية.

- يا أفندم أنا باحسب من سبع سنين.

- طيب.. سر على بركة الله.

- شكرا يا أفندم.. أنا كنت واثق من تدعيمك لعملي.

-... أنا معك حتى النصر أو الموت!!

ضحكا وانتهت المكالمة باستقبال رسول من مكتب الوزير يحمل أكداسًا من الشكاوى محملة للمدير العام لدراستها. ابتسم حسن وهم يسلم الشكاوى لإيزيس ويطلب منها استدعاء من كتبوها لتبلغهم أن المدير العام رحيم معهم طالما يكتبون تكذيبًا لأنفسهم فوق نفس الأوراق التي كذبوا في كل قطرة حبر أراقوها عليها من محبرة قلوبهم السوداء. كذّبوا جميعًا أنفسهم دون مناقشة أمام رقة التهديد الذي كانوا يخشونه ويحلمون بحماية الوزير لهم منه. أرسلت الشكاوى إلى الوزير مع رجاء بإبلاغ الصحف.

تسللت عينه من جديد إلى نقوش الفنجان ليسمع صوت الوزير مرة أخرى:

- التكذيب مدهش. دلوقتى عرفت أنك معاك حق، وإنك راجل عاقل موش غاوي مذابح وإنما غاوي إنتاج وعمل. أنا بأديك تفويض بكل سلطتي في العمل عندك.

-اعتبر دا تفويض رسمى؟

- ثق من كده يا أبو علي!

- شكرا يا أفندم، ومن هنا ورايح حاسبني على الإنتاج.

- ماشى... مع السلامة.

- مع السلامة يا أفندم.

ودخل من جديد إلى قاع الفنجان. فوجئ بأنقاض بناء شامخ فوق آلاف المومياات المهشمة، ابتسم لفرط جهله بلغة الفنجان وتصور أن نفس القاع يمكن أن يقرأ على أنه اكتشاف أثرى هام سيكون له يد في تحقيقه. قرر أن يعيد الفنجان إلى مثواه في بوفيه الشركة حتى يوقف جاذبية قراءته لأنه أصيب بشيء من الهلع فيما يمكن أن تحمله جنبات الفنجان من الأخبار. أحس بشيء من الجوع فاستدعى إيزيس.

- أفندم؟!

-.....

- أفندم؟!

رفع نظره المنكس نحوها، ونظر إليها في توسل، رأت صرخات الطفل الجائع وركلاته في عينيه. احتارت في أمرها وأمره. توقفت الصرخات وابتسم الطفل:

- أنا جوعان وحأنزل آكل.. موش حارجع تانى النهارده؟
- اتفضل يا افندم..... أي أوامر؟!
- من غير أوامر ولا حاجة... خدي مفتاح بيتى... أنا حارجع متأخر، و حاحتاج حد أكلمه لما أرجع... عندك مانع؟

مدت يدها تأخذ المفتاح في حنان وسعادة. ابتسمت له ابتسامة تحولت إلى نافورة ملونة يرتدى رذاذها جسمه العاري من الجلد. أحس بالبرودة والدفء والابتلال. استمع إلى أغنية تتناثر أنغامها في فضاء روحه. استدارت وانصرفت فى خفة العصفورة وظن أن الأغنية نوع من تغريد جيتارة مجنّحة أوتارها ضلوع هذه العصفورة. لقد تحسس هذه الضلوع بالأمس ووجدها في عدد أنغام السلم الموسيقى لغابة عذراء.

خرج في هدوء ينظر إلى ساعته وقد تأكد أن لديه وقتًا يسمح له بجولة في مكاتب الشركة وعنابر آلاتها، وذلك قبل موعده الغريب مع سناء. طرد من خياله فكرة أنه يخون زينب وأحمد سامي بل وإيزيس. تيقن من طهارة قلبه وقلب سناء وأدرك فيما يشبه الحلم أن كل الأسماء تتلاشى أمام بهجة الاسم المضيء: سناء.

أحس بالقوة وهو يتحرك مثل النحلة الشغالة في أرجاء الشركة كانت أقدامه تسير فوق أرض غابت عنها الزلال وتسربت إليها روح الجرانيت، ومع ذلك فقد اعتراه قلق غامض يغور في أعماق قاع فنجان قهوة هذا الصباح: أنقاض بناء شامخ فوق آلاف المومياوات المهشمة.

حاول أن يخرج من قاع الفنجان فتهشمت عظامه. لملمها

بصورة سناء تنتظره في مطعم بين أحضان النيل. طار إلى المطعم. وجدها في استقباله بابتسامتها المجلجلة مثل أشعة الشمس تنبثق فجأة من سحابة منقشعة. أحس برحيق شفتيها ينتشر مع الابتسامة مثل عبير ورد بلدي يطلب القطاف. وقفت. صافح كتفيها بكفيه يضغطان على قطيفة حية دافئة فيدفعانها نحو مقعدها لتجلس من جديد ثم انقضت كفيه وهو يجلس بجوارها على كفيها واحتضنهما في حنان.

أحس بعصير الليمون الحلو في عينيه عندما ذابت سناء فيهما. دمعت عينه فاكتحلت عيناها بشيء من ندى البدرية. اكلا سمكا مسلوقا وهما يسبحان في الموطن القديم لذلك السمك المسلوق. مسحت خفة دم سناء الدموع من العيون. قالت ملامحه أن فرحته بها فرحة زفافية تدق فيها طبول القلب وتصدح مزامير الأنفاس. خرجا من المطعم فوق براق من أوهام الخيال. خاضا داخل أحراش من الحشائش تنبتّ محتشدة بغير نظام على شاطئ النيل. لم يخافا من الثعابين التي كانت من قبل تماسيح ثم تحولت إلى حيوانات برية في صورة الثعابين.

سكتت تلك الأحراش. تسابقا وتلاحقا وتعثرا واستلقيا على الحشائش سويا مرات ومرات. صارت الحشائش فراشا وحشيا يلف الأشواك بنعومة النجيل. جلجلت الضحكات وتقطعتها مرارًا التنهدات. أحسا بأنهما رحلا إلى زمان ميلاد العالم في الضفة التي تبدو بعيدة بعد النجوم ومع ذلك يقفز الإنسان إليها في خطوة خاطفة اسمها الموت. كان النيل يجرى نحو الشمال وانطلقا هما نحو الجنوب كأنهما يبحثان عن منابعه قالت له:

- لولاك ما جئت إلى العالم.

هدأ ويده اليسرى تلتف حول خصرها وقال:

- ومن أجلك تركت الجنة.

- ومتى ذهبت إليها حتى تتركها!

- إنها لحظة الميلاد.

- أو لحظة الموت.

- إن الميلاد موت ينقلنا إلى هذه الضفة والموت ميلاد جديد في الضفة الأخرى القديمة للزمان.

- وأين نحن الآن.

- في الضفة الثالثة..

-... نولد أم نموت؟!

- ودعنا الموت والميلاد بعد أن عانيناهما.. إنه الخلود!

- أحس بأن هذه اللحظة ستصير وقودى إلى الأبد.

- سأحبسك فيها يحرسك حبي وأرحل بعض السنوات لأبحث لك عن ثمرة الخلد لنشترك فى أكلها.

- خذ هذا العقد إنه جعران مقدس يضمن عودتك إلى صدرى.

عادا نفس الطريق يتشابكان ويذوبان في غليان هادئ عيونهما تمتد إلى حدود المدينة من جديد. وصلا إلى سيارته. انطلق بها كالمنوم إلى أكبر قبر فى العالم. كان المساء يغطى الأرض بستائره الرمادية الممزوجة بالأحمر الشفقى تمددا على الرمال:

- هل تعرفين أنهم نقلوا صاحب هذا القبر الأكبر ووضعوه في صندوق زجاجي لكي يشهد الناس نموذجًا للخلود لعلهم يعرفون الحب.

- وهل تتصور أن الهرم قبر؟
- ليس قبرًا عاديًا.
- بل ليس قبرًا على الاطلاق.
- إذن ماذا يكون؟
- إنه الهرم فحسب.
- وماذا يعنى ذلك؟
- يعنى قصيدة حب كتبها المصريون يوما ما لوطنهم.
- والجثة التي كانت بداخله؟
- عنوان قديم للقصيدة يضلل الناس فلا يحسنون تذوقها.
- وهل لها عنوان جديد اليوم.
- كلا.. إنها في انتظار عنوان جديد لن يكتب إلا بدماء قلوب عاشقة عرفت لحظة الخلود!
- قلبانا؟

نظرا إلى الهرم وخاضا في مركز الكون حيث يشاهدان منبت المحور الذى يدير الأفلاك فى سرية. اقتربت الساعة من السابعة. طالت القبلة بينهما حتى سخن موتور السيارة. حملها إلى بيتها وقد اسكنهما جلال الوجود بعد أن أسكرهما جماله. ودعها في جراة بقبلة أخرى على عتبة باب بيتها. لم يتفقا على لقاء جديد لأنهما لن يفترقا بعد الآن في افتراقهما.

شعر بصعوبة السيطرة على السيارة وهى تهبط من السماء نحو الأرض. عجب من أن هبوط لسيارة لا يختلف عن هبوط الطيارة. وزاد عجبه لأنه طار- دون ترخيص- بالسيارة كطيار ماهر، وهو لم يسبق له قط العمل طيارًا.. سارت السيارة بعد

الهبوط تشق الهواء في نشيج عاصفة دؤوب. وصل إلى القصر الصغير مخترقًا حديقته الواسعة.

كانت مثل إمبراطورة من العصر الوسيط تستقبله على الباب استقبال الإمبراطور المحبوب بعد العودة من رحلة صيد. كان ثوبها الطويل الشفاف يرفرف في رقة بفضل الأنسام فتحول إلى آلاف من الفراشات تظلل رأسه وتلحس عرق وجهه. وقف في مواجهتها شامخًا في صمت صفيق. لم يمد يده لمصافحتها. كان ثابت الجنان هادئ الأعصاب، اكتسب من وجوده مع سناء استرخاء عجيبًا، نزع عن نفسه كل تعب أو ضعف أو تردد.

نطق في ابتسامة عريضة نهمة:

- هل يمكن أن تفسحي لي طريقًا للدخول؟

- الطريق مفتوح لك.

- لكنك تسدين الباب بجسمك.

- وافتحه بروحي.

دفعها بيده فتدافعت. دخلا وجلس على كرسي طالما جلس عليه أبوه. جلست في مواجهته واندهش لتسلل فخذاها من الثوب الطويل السابغ دون أن يبدو في ذلك عمد كأنهما تياران من الماء يفتحان طريقًا نحو كعبيها. رأى في الكعبين مصبين يستقبلان الماء وتترقرق على صفحتيهما أنوار وجهها عندما أطرقت صامتة لا تنطق حتى بكلمة الترحيب. قرر أن يكسب كل دقيقة.

- سلافة هانم ! فيم تسرحين؟

انتبهت فجأة:

- في اللاشيء!

- إن قصرك جميل.
- إنه عالمي.
- أريد أن أتجول في عالمك. هل تسمحين؟

لم ينتظر جوابها. نهض. أخذ بيدها. نهضت معه وهى تحلم. "أريد أن أرى كل بقعة في هذا القصر". نطق بذلك وهو يقودها مفترضا أنها تقوده. وصلا بعد أن جالا في القصر إلى غرفة متسعة اتساعًا يهول. في عمق الغرفة استقر في وداعة سرير على هيئة دائرة. كانت أغطيته الزرقاء توحي بأنه عين نبع عميق من الماء. أما الأرض التي يستقر عليها السرير فقد بطنها سجاد سميك تغوص فيه الأقدام. لون السجاد سماوي فاتح يبرز زرقة السرير الدائرى. أما الجدران فقد غلفت حتى ارتفاع المتر بخشب براق يشبه حقل القمح عند طلب الحصاد. يعلو الخشب مرآة هائلة تدور بالغرفة تغلف الجدران بنور كأنه الحريق يتمرد على كل قوى الإطفاء. ضبط نفسه حتى لا يصاب بالدوار أو الإغماء وركز نظره فى دولاب يقطع دائرة المرآة ويستدير حول قوس من السرير فكأنما هو رأس السرير.

خطف عينيه من قبضة المشهد ونظر إلى السقف كمن يهرب إلى الفضاء. لم يجد سقفا وإنما سماء تزينها النجوم. أحس بضآلته. إنه قد غرق فى الكون وقد التأم شمله فى غرفة لا نهائية الوجود. نكس رأسه مفكرًا فوقعت عينه على بقعة من نور فوق سطح بحيرة السرير. لقد تجردت مايسة هانم من ثيابها لتسبح فى مياه تلك البحيرة الزرقاء. أشارت إليه بيديها تناديه. كالمسحور تقدم. جلس على حافة السرير. صعد السرير ويداه تطيحان بحذائه

فى سرمدية بر لا يعرف مداه تمدد فى سرحاء يستنشق نسيمها الفواح.

نهضت تعاونه فى التجرد من ملابسه التى كانت تتطاير حارج دائرة البحيرة الزرقاء لتلحق بالحذاء. نظر إليها فانتابته موجة من الصرع. قرر اغتصابها فورًا دون مقدمات. قاومت. أقسمت فى فؤادها أن لا تسمح له بشىء سوى باغتصابها كما لا يكون إلا أفظع الاغتصاب.

اندفع فى ضراوة يروضها، وقد استيقظت كلابه السبعة تنبح حول السرير وتتسلق فوق أطرافه. ضاقت البقعة التى تضمهما هربا من أظافر الكلاب وأسنانها. تكوما والتفا وانطوى كل منهما فى الآخر بضع طيات، وهو لا يتوقف عن ضرباته المغتصبه الظافرة حتى سقطت فى يده وتوقفت مقاومتها، فنالها كما ينال الغواص بيده لؤلؤة رباها فى قاع البحر.

شعر بعزة المغتصب وسفالته، ووجد فى نفسه لهما لذة دفعته لأن يسعى لاغتصاب جديد. رآها فى حالة استرخاء تستجم وتستجمع قوتها. خشى أن يعجز عن نيلها مرة أخرى لو تركها تعيش التجربة فى خيالها لتسيطر عليها. بدأ هجوما جديدًا عندما رأى الكلاب السبعة التى اختفت تظهر من جديد. دار السرير بهما وكانت التى تديره هى الكلاب مثل ثيران عمياء. أسرعت الدورات ومعه تمزقت جدران الغرفة وأخذت فى التهدم.

اندهشا إذ وجدا السقف معلقا فى الفضاء دون الاستناد على جدران. خرجا وقد غسلتهما بحيرة السرير من عاصفة الغبار الذى أثاره انهدام الجدران. بكيا واغتسلا بدموعهما عندما بدأ

يغتصبها للمرة الثالثة. فى المرة الرابعة بدأ السرير يغوص فى الأرضية التى أصابها زلزال. فى المرة الخامسة انفجر من تحتهما بركان عجزت مياه بحيرة السرير الزرقاء فى أن تلون حمرته بالخضرة. رفعتهما أحجار البركان الحمراء المتطايرة فارتطما بالسقف. فى المرة السادسة هدأ البركان وعم الظلام الكون. لم تستطع أن تقاومه كما يجب. أحست به تنينا متعدد الأيدى. لقد أخمد ببراعة المقاومة فى أماكن متعددة فى وقت واحد. لقد أصبح للطبيعة بعد زماني واحد مهما اختلف المكان. فى المرة السابعة كان الاغتصاب هادئًا ومريرًا واستغرق زمنًا طويلا كي يبعث أباه السبع من سابع نومته، التى طالت علي مدى سنوات قحط الابن.

لقد تعودت الاستسلام فى استعادة لماض أقسمت أن تستعيده، كما تعود الهجوم وتحطيم الدفاع، مثل كل الوارثين. لقد كان يضرب قرى مهدمة خالية من السكان، وكانت تسلم لعدو لا وجود له إلا فى خيالها. استطعما المرارة وخمدت أصوات الكلاب السبعة واختفت صورها.

لم يستطع أن يصدق ما رآه فى المرآة. لقد ظهرت أربعة أرجل تتضرع إلى السقف المعلق، وتتقاطع لترسم سبعتين أو سبعة وسبعين. استغرقه الرقم فلم يعد قادرًا على إنهاء الفعل. استمر يقرأ ما يرى وهو يتساءل كيف انهدمت الجدران وبقيت المرآة.

غاص السرير وأحيط بمصابيح حمراء من كل ناحية وصدحت فى الأرجاء أصوات سيارات الإسعاف. كانت كل

سيارة تحمل سبع جثث ذات وجوه كادحة. استسلم للايقاع الحزين. ماتت المرأة تحته ابتلعتها مياه البحيرة. خاف من الغرق خلفها عندما بدأت خلايا جسمه تتشح بشظايا سقف مدمر. سبح بصعوبة حتى الشاطئ. سقط من مياه البحيرة فوق سجاد أرضية غرفة النوم معلقا فى مظلة هبوط رفضت أن تنفتح. لم يعرف هل وصل إلى الأرض سالمًا أم مهشم العظام لكنه تمكن من ارتداء ملابسه المبعثرة ولم يعثر على حذائه. لم يودع جثمان سلافة هانم. خرج كالعهن المنفوش. فتحت له إيزيس باب بيته. سقط على كتفها اليسار، لانشغال كتفها اليمين بمصافحته. صحبته كمن يحمل ذنوبه يوم الدين حتى السرير.

نام سبع سنوات. عجز الأطباء عن إيقاظه. أيقظته الشمس ذات يوم. فرحت إيزيس فرحة فاضت لها دموعها.

نظر حوله فوجدها بين يديه. تثاءب لمدة سبع ساعات ثم أفاق. قال:

- الحمد لله!

قالت:

- ألف حمد!

قال:

- أين أنا؟

- فى بيتك!

- وماذا تصنعين فى بيتى؟

- أنا زوجتك!

ابتلع ريقه، ولم يفهم كيف تزوج سكرتيرته. ربما فعل ذلك فى

حالة سكر. صدقها وخشى من سؤالها عن التفاصيل بشكل مباشر. قرر أن يحاورها ويداورها:

- هل تعرفين فتاة اسمها زينب؟

- إنها ابنتنا التوأم التى انجبناها مع أختها سناء فى يوم واحد.

أصابه فزع حقيقى وأدرك أنه سيهزم فيما حاول أن ينتصر فيه. قرر أن يقبل كل الإجابات على غرابتها المفرطة حتى يكون لنفسه صورة عن الموقف الذى وضعه – فيما يحس فى تلك اللحظة – تحت رحمة هذه المرأة تماما. سألها:

- من أحمد سامى؟

- أبى! وسناء الآن تحت رعايته كما أن أختها زينب تحت رعاية أبيك الفيل!

- أنا لا أذكر علاقة أبى الفيل بمن يدعى حسونة السبع!

- إنهما شخص واحد، لكن حسونة السبع اسم فنى لأبيك منذ أن امتهن تمثيل أدوار كوميدية لخادم يقيم علاقات غرامية مع زوجات السيد!

- أريد أن أرى زينب وسناء.

- سيفرحان كثيرا أن يعودا لبيتهما أخيرًا.

- ولماذا لا يعيشان فى بيتهما؟

- منذ ذلك اليوم المشئوم الذى سقط فيه المصنع على العمال بسبب اختلاسات الغول قضيت أسبوعًا بين الأنقاض تشارك فى عصبية فى إخراج الجثث. لقد كنت قويا ورائعًا لدرجة المُعْجِزَة. أمضيت أسبوعا دون نوم فى عمليات الإنقاذ. أخيرا نمت بعد إخراج آخر جثة وبها بعض نبض من الحياة. حملوك إلى هنا

نائماً ولم تستيقظ إلا الآن. هل تفهم؟

- .....

- سبع سنوات من النوم وأنا أحاول إيقاظك بكل ما يملك الطب من حيل. لم يكن من المناسب أن تنمو بناتنا حول جثة حية لأب نائم. تبنى أبوك زينب، وتبنى أبى سناء.

انفجرت باكية فى حرقة. كانت تبكى من فرط الفرح وتستخرج أحزان سبع سنوات عجاف من الانتظار. لم يجرؤ على سؤالها عن سلافة هانم وفاطمة هانم، ولا عن الفيل الأب والفيل العم، ولا عن امرأة كانت تنام مستندة على جذع شجرة فى الحديقة الكبيرة للقصر الصغير بينما كان يلعب طفلا مع زينب الطفلة... وذلك لسبب صغير: لقد نظر من النافذة فوجد امرأة تنام مستندة على نفس الجذع فى نفس الحديقة، وحول الجذع أشباح يعرفها، ملأت قلبه بالفزع وهى توقظ المرأة فى خشونة. فى تلك اللحظة فقط تأكد أنه فى القصر الصغير. أراد أن يصرخ. تحجرت الصرخة فى فمه سنوات أمام مشهد خمسة أطفال ذكور يدخلون الحجرة فى تصايح جماعى.

- حمد لله على السلامة يا بابا.

آثر أن يغمض عينيه من جديد وظن أنه الموت، بينما تعانى إيزيس المخاض فى اليوم الأول من الشهر الثامن من الحمل!

* * * * * * *